

رحلة للهواء مفعمة بروح المغامرة، بالبارود،
بالملح وبألوان الزهور غير المعروفة. هذا ما توصل
إليه فرانسوا. لكن مغامراته في جنة القراصنة
والبحارة، وفي منطقة البحر الكاريبي، لم تزل أحلاماً
فقط. فها هو مضطجع على سفينة للرقيق مكبل
بالسلاسل وينتظر اللحظة المناسبة التي ستجسم كل
شيء ألا وهي:
العصيان.

دار ثقافة الأطفال
قسم النشر

السعر: ٦٥٠ فلساً

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد (٨٦٠) لسنة ١٩٨٩

دار الحرية للطباعة ـ بغداد



تحت ظلال الشيطان

تأليف: مارك فلامنت

ترجمة: نوفل محمد فوزي

٥

تحت ظلال الشيطان
ترجمة : نوفل محمد فوزي
تأليف : مارك فلامنت
الطبعة الاولى : ١٩٨٩

الناشر: وزارة الثقافة والاعلام. دار ثقافة الاطفال
ص. ب. ٨٠٤١ بغداد ـ العراق

روايات عالمية للفتيان

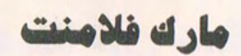
تصدر عن قسم النشر في دار ثقافة الاطفال
المدير العام: فاروق سلوم
سكرتير التحرير: فاروق يوسف

الخلاصة:

في عام ١٦٧٦، قبل حوالي ثلثمائة عام، كانت رحلة الانسان الى اميركا، تشبه مغامرة السفر الى القمر في أيامنا. وكانت تلك الرحلات مغامرة يقوم بها المرء. مغامرة كانت تتجدد في كل سفرة. وفي ذلك الزمان تكونت أحداث هذه القصة المثيرة للشاب (فرانسوا لينورماند)، والمسمى بابن القراصنة.

كان فرانسوا ينتظر نهايته المريرة وهو على ظهر احدى سفن العبيد مكبلاً بالسلاسل. ولكنه لم يستسلم بسهولة، وتولدت لديه فكرة واحدة هي: الهروب!

انها قصة تصف جزر القراصنة الرائعة، حيث تمتزج زرقة السماء بماء البحر وأشجار جوز الهند والغابات في جزر الكاريبي. انها قصة تتحدث عن كنوز القراصنة واعمالهم البطولية، عن العصيان والشدّة، عن الجمال والصداقة والوفاء. «تحت ظلال الشيطان» هي القصة التي يجد فيها كل شخص حلمه الخاص في تذوق طعم الحرية والمغامرة!



عن الكاتب:

بهذا الكتاب، الذي أُستمدت أحداثه من الواقع، قام (فلامنت) بجمع مغامرات القراصنة فيه. والصحفي مارك فلامنت، من هواة الإبحار الشراعي، تجاوزت شهرته حدود فرنسا من خلال أعماله الكتابية، وقد نال [الجائزة الكبرىٰ للآداب في فرنسا] عن قصة اليافعين التي كتبها «السفينة الاخرىٰ الى الجحيم» عام ١٩٧٨! والذي يقرأ كتاباته يعرف أيضاً لماذا:

يعد فلامنت فنان الاثارة..

تحت راية الشيطان



سفينة قديمة أم مقصلة؟

ـ المدافع في مواضعها ياكابتن!

ـ هل الرؤية للهدف واضحة؟

ـ واضحة!

ضحكت. وكانت مدافعي موجهة صوب سفينة

«بريگ» الانكليزية. وكان رجالي معلقين على الأشرعة والصواري، أو متربعين خلف مطارق المدافع، اذ كانوا مستعدين للهجوم. كان الجميع بانتظار أمر مني. والآن أصبح أمر منعهم من القتال صعباً. فسفينة (بريگ)، ألتي كنت ألاحقها منذ خمس ساعات، قامت بنشر أشرعتها جميعاً. وكان شكلها جميلاً، لاسيما وهي تنزلق بتلك الروعة على سطح الماء. وفي غضون دقائق ستكون هذه العروس الجميلة ملكاً لي.

أصدرت امري: «انتبهوا للتجذيف!»

وقمت حينها بفحص مسدسيَّ الاثنين للتأكد من ملئهما، وكذلك البنادق علىٰ سطح السفينة، فضلاً عن جميع المدافع علىٰ السطح ومعها المنجنيقات. كانت هناك تحت كل مدفع كمية مناسبة من الماء في براميل كثيرة من أجل التبريد واطفاء الحرائق. وكان السكون يلف المنطقة التي حولي، ولم يتحرك أحد من الواقفين. وكان صوت الرياح على الأشرعة يكاد يقطع النَفَسْ، وكأنه ميّز أهمية تلك اللحظات التي مرت بتثاقل.

عندها صحت: «هيا يا بحّارة، استولوا على الغنائم، وتخلّصوا من الانكليز!»

وكان صدىٰ الصيحة في الرجال عميقاً، وقاموا بحركة

صلاة وتوجهوا للعمل. كما أن الانكليز ـ هم الآخرون ـ قاموا بالعمل نفسه على ظهر سفينة (بريگ)، حتى لكأنهم كانوا يعتزمون التخلص من رجالنا جميعاً. لذا فالأمور اتخذت مسارها الصحيح، واتخذت نظامها الخاص. ولم يبق أمامنا إلّا الاشتباك مع عدونا.

بعدها قمت بتوجيه القبطان ليبطيء السرعة قليلاً، ثم الانطلاق بسرعة. وما كان على القبطان الا ان ينصاع لأوامري. وكانت يداه الملطختان ـ لسوء الحظ ـ بالقير قد التصقتا بالمقود وبشكل هادىء. وفي الوقت ذاته فقد لاحظت جلياً أن قبطان السفينة الانكليزية كان ملماً بعمله جيداً أيضاً.

أما طبيب السفينة فأنه كان مختبئاً ويطل علينا من احدى النوافذ الصغيرة. وبعلامة بسيطة من يده أوضح لي أن جميع الامور لديه كانت على ما يرام، وأنه جهّز أدواته على نحو اصولي كامل. وأخيراً فان أملي به كان كبيراً من حيث أداؤه العمل جيداً، لأن الرجال الذين ضحوا بأنفسهم كان مصيرهم بين يدي هذا الطبيب. وكان تعلقي برجالي كبيراً جداً.

«اطلقوا النار!».

وكان الوقت كافياً لاطلاق صلية من النيران، والتهيؤ

للصلية الاخرى. ثم أصبحنا متقاربين في المسافة أي السطح قرب السطح. وكانت الصيحات تعلو في كلا الجانبين. وتعالت أصوات إطلاق الرصاص على سطحي السفينتين.

«سيطروا على السفينة!» صحت بحماس عالٍ مرعب.

حينها إنسلّ القراصنة من على قماش الأشرعة مثل العناكب العملاقة السوداء المشعرة. ثم ذابوا بعد ذلك في خضم الحشد الهائل من البشر على السفينة. أما رائحة ودخان القنابل التي إنبعثت من جميع الفتحات والشقوق الموجودة في السفينة، فانها حجبت عني الرؤية لقسم من الجسر أمامي. لكنني كنت على علم بأن جماعتي كانوا في طريقهم لاحراز فوز على البريطانيين، اضافة الى كونهم سببوا لدى الخصم حالة من الفوضى والارباك هائلة وهم في طريقهم لاحتلال السفينة.

بعدها صحت: «لقد سيطرنا عليها، وهي لنا الآن!».

ثم انتابني رعب هائل، وفي اللحظات التالية وجدت نفسي غير مرتاح، فقد كنت في حلم جميل. وكان ذلك أحد احلامي الكثيرة المتطلعة نحو الحرية والمغامرة والحصول على الغنائم. لكن الحقيقة بدت على نحو يختلف عن ذلك حد الازعاج!

فقد كنا جالسين تحت السطح الثالث ومكبلين بالقيود في الفرقاطة الفرنسية «آنجيلوس». وعدت بالذاكرة الىٰ ذلك اليوم الذي تركنا فيه تلك الجزيرة ومعي (٣٠) من رفاقي. وقد كان علينا رفع المراسي وأخذ الاتجاه الثابت صوب فرنسا.

كان الجو حينها حاراً، وقد مسحت العرق المتصبّب بظهر كفي.

وكان الهواء الرطب الساكن يقضّ مضاجعنا ليلا ونهاراً، حتىٰ أن الهواء البارد لم يتسرّب الينا من المنافذ المطلة على الماء.

وكنت أجبر نفسي على الدوام أن أنسىٰ الماضي والحياة السعيدة التي كنا نعيشها على (جزيرة جنة القراصنة).

وبالمناسبة فان اسمي هو (فرانسوا لينورماند)، وانا فرنسي الأصل. وعمري، الآن هو (١٥) عاماً. ولا أعرف تماماً ان كان عمري بهذه الحدود. وقبل ثلاث سنوات انطلقنا أنا وصديقي (گلاتزكوپف) في البحر الكاريبي. وقام صديقي بتعليمي تفاصيل عمل القراصنة. وقد شهدنا معاً الكثير من الاحداث، فضلاً عن العديد من المخاطر التي طويناها معاً أيضاً. وكنا دائماً نبحث عن السفن الاسبانية، أو السفن التجارية الهولندية. وكنا

نحصل على غنائم سخيّة حينها. بعدها فقدنا سفينتنا. صديقي ومعلمي (گلاتزكوپف) مات بين ذراعيّ. وأنا تم أخذي من قبل (عصفور الشؤم) علىٰ سفينته. وعصفور الشؤم كان قبطان القراصنة الكئيب في منطقة الكاريبي.

وكان قد سبق أن تم أسر سفينته (عصفور الشؤم) أمام جزيرة (تورتوكا) من قبل فرقاطة صاحب الجلالة، ملك فرنسا. حينها تم ربط جميع القراصنة الذين بقوا أحياء بالسلاسل ووضعهم في عنابر السفينة. وكان من المزمع أن يتم أخذنا الىٰ فرنسا. وكعقوبة كان إما سيتم اعدامنا بالمقصلة أو الذهاب الىٰ السفينة القديمة. وقد فضلت حينها أن لا أفكر بالمستقبل المظلم الذي ينتظرنا. كما انه ما من أحد سيفتقدني في حالة حصول مكروه لي. وعندما ستعلم (ايزابيلا) تلك البنت التي تعرفت عليها في (سانتودومنيگو)، ستبكي قليلاً وينتهي الامر هكذا. ومنذ أن وصلنا الىٰ هذه المدينة، لم اعطها أية علامة تدلل على حياتي واستمرارها في هذه الدنيا.

لقد نسيتني حتماً!

والآن ربما يكون الوقت ليلاً في الخارج. كما ان ارتطام الامواج التي ضربت الأجنحة الواقعة قرب المرساة، أيقظت احلامي ثانية.

وأخيراً تمكنت من النوم، ولا أعرف كم استغرقت فيه، ربما ساعة أو ساعتين. وفي أثناء نومي تقلبت يمنة وشمالا. أما الفئران فانها بدأت تعض أصابع رجلي في اثناء نومي. لكني لم أشعر بشيء من هذا القبيل، الامر الذي لم يثر دهشتي، لأن الفئران قبل ان تبدأ بالعض تنفخ في تلك المنطقة ليكون أثرها مثل المخدر. لذلك فقد كنت غاضباً، وقمت بملاحقة تلك القوارض الوحشية مثل الذئب. وكنت عالماً بأنها ستعود ثانية، وثالثة الى ان تصل معنا الى فرنسا.

«هيا، تحركوا أنتم الذين في الداخل ـ فالكابتن ينتظركم على السطح !».

وهذا الصوت الخشن أيقظني من النوم.

«وربما يريد أن يرى شنقكم على أعلى السارية ياأصدقائي»، قالها أحد البحارة من ذوي الشعر الاحمر، وأضاف: «وربما يثير هذا الامر جماعتكم من قراصنة البحر ويجذبهم ممن لازالوا احراراً. حينها ستقام لكم محاكمة قصيرة».

وقام إثرها جنود البحرية بتحريرها من السلاسل وهم يضحكون. وبقينا نحن القراصنة صامتين. وقرصان البحر يصمت في حالات الشدّة. وحتى إن قام المرء

بايذائه، فان صبره يكون اكبر لتجنب النتائج التي قد تنجمُ جراء انفجاره لو حصل ذلك. هذه هي مواصفاتنا نحن قراصنة البحر. فالمغامرة والبحر قامت بصياغة نفوسنا، وكأننا نُحتنا من الصخور. اذن نسكت ونصمت.

ثم جاء شخص آخر لأجل التحديق بوجوهنا على نحو ادق. وكان يمضغ شيئاً في فمه ويدوره من اليمين الى اليسار (حينها نظرت الى عصفور الشؤم ولست مدى شوقه للطعام). وسأل هذا الشخص باستهزاء: «ألا يوجد مرضى هنا؟».

«كلا». أجاب إيفز، «هنالك جرحى فقط للجلاد».

«حسن. اذن حسب التسلسل الصعود الى فوق»!.

وفي الخارج كان النهار يبدو رائعاً بضوئه. وكانت أعيننا لا تحتمل الضوء المبهر، بحيث ان الامر استغرق دقائق عديدة حتى تعودنا على ذلك الضوء. وقد عكس ماء البحر الساكن الضوء ليبدو كالفضة البراقة.

صديقي (ساريل) همس في أذني قائلاً: «انظر يازميلي، هناك في الشمال الشرقي، ان جزيرتنا مازالت ظاهرة أمامنا.. فهي جزيرة السلاحف، وهي خضراء بلون الحرية وطعمها».

امتد بصري فوق سطح البحر وسألت نفسي: «تورتوكا

لا تستطيع اليوم انقاذنا، وان وقت الحرية قد انقضىٰ مؤقتاً، وربما نستعيده يوماً ما!».

ومثل جميع البحارة من القراصنة الذين تعودوا على رؤية أصغر المخلوقات في الجو أثناء حراستهم، تمكنت من رؤية اصغر الاشياء في الافق وعلى سطح الماء مما يثير العجب. لكني لم أرَ شيئاً يبعث على الأمل والتفاؤل. كان يوجد هنا أو هناك مركب صيد صغير فقط، كان العبيد يرمون بشباك صيد الأسماك من فوقها.

صديقي (ساريل) قال يتهكم: «لا شيء عدا الهواء بالامكان رؤيته!» وعلى سطح السفينة كان هناك ما يشبه الفوضىٰ. وقد حاول جنود البحرية دفعنا بوساطة السوط والشتيمة والاجبار لنكون على هيئة طوابير مرتبة للقيام باستعراض بسيط على سطح السفينة (هذا الامر لم نكن لنصل اليه بسهولة). وان كانوا يعلمون مدىٰ امكانية وطاقة المرء ان قرر القيام بالمعارضة، كانوا سيعلنون حتماً يأسهم.

«السكون، واللعنة عليكم، فها هو الكابتن قد حضر!».

الرجل الذي قام بقيادة السفينة، نزل من على السلّم الذي يشرف على مؤخرة السفينة.. وكان يلبس الملابس نفسها التي كان يلبسها يوم تم أسرنا فيه. وعلى رأسه

كانت هناك طاقية مريّشة. وكان يحمل عصا في يده اليمنىٰ، وحاول بيده اليسرىٰ حماية عينيه من أشعة الشمس الثاقبة. كما إنه يعاني من سخونة الجو اكثر منا حسبما بدا ذلك واضحاً.

«بودّي منازلته بكل شوق»، همست باذن ساريل بصوت منخفض. «وهكذا فقط من أجل المزاح، الخنجر له، والسيف لي!»

«انتبهوا ياشباب»، قالها عصفور الشؤم، وقام بتمسيد شعر لحيته المدهون بزيت السمك باصابعه.

ظل قبطان سفينة (آنجيلوس) واقفاً امامي. وقام بامالة رأسه، وحدّق النظر بي، وعاد خطوة الى الوراء، بعدها مرر قبضة عصاه أمام أنفه وقام بشمّ المسك المنبعث منها، والذي سبق أن خبّيء فيه. كانت تلك الطريقة الوحيدة، حاله حال الضباط الآخرين، للتخلص من الرائحة الكريهة للسجناء. وبعد أن حملق بوجهي برهة من الوقت سأل: «ما هو اسمك، ياأيها القرصان المحتال؟».

«فرانسوا لينورماند، أيها القبطان».

«إن لم أكن مخطئاً، هل أنت هنا أصغر فرد بيننا؟»

«للأسف، انك متوهم!».

«صحيح؟» قالها القبطان بتعجّب وأضاف: «أجد على سطح سفينتي احداً يستطيع التفكير والحديث بتعقل! وربما نتساءل لماذا؟»

«بالطبع ياقبطان»، أجبت بجدّية تامة: «والفرقاطة هي أصغر مني سناً!».

«بحق؟».

أنا متأكد. فقبل عشر سنوات قام المرء برفع الاوزان على نحو مغاير عما هو عليه الآن، و......».

«أنا أرىٰ ان لديك عينين تـرىٰ فيهما جيـداً. هل ان والدك بحار؟».

عندها نظرت بعينيه بفخر واعتزاز لأقول له: «كلا، بل ان والدتي هي القرصنة».

انقلبت ملامح وجه القبطان لتنمّ عن غضب محتدم فيه.. وربما كان لوقع كلماتي أثر في تعكير صفو مزاجه.. وقام على اثرها بابعاد مرافقيه، ومد ركبته نحـو الامام ليستمر في استفساراته.

«أحسنت ياصغيري»، دمدم عصفور الشؤم بلحيته المتدلية الكريهة الرائحة وأضاف: «لقد احببت القبطان بنحـو جيد وحـالما يطلق سراحي، فسـوف أقوم بشراء أسماك مجففة لك بقيمة ثلاثة جنيهات».

ساريل قال لي: «انظر لقد بدأ بتصريحاته، وأقسم، إن شيئاً من هذا القبيل ربما سيكلفنا رؤوسنا حالاً».

ولم يكلف ذلك الامر رأس أي واحد منا، ولكن حماسي ونقاشي جلب لي سجناً مدة اسبوع واحد في الزنزانة في أسفل المخازن.



وداعا للقرصنة:

عنـدما قضيت اسبـوعَ سجني في الـزنـزانـة، وتم السمـاح لي بمغادرتهـا، لاحظت ان السجن في السطح الثالث كان جنة مقارنة مع الـزنزانـة. وقام أصـدقائي بتحيتي ببعض الضربات على ظهري. وقد عرفت أن جنود

البحرية قاموا بتحريرهم من سـلاسلهم. أما من جهـة عصفور الشؤم فقد وقف أمامي منتصباً بقامته الفارعة، وهو يلعب بلحيته ذات الرائحة الكـريهة وقـال: «علينا الاعتناء قليلاً بصغيرنا. وأنا اعطيه حصتي من الماء!».

وقد قام أصدقائي الـواحد بعـد الآخر لتفحصي من جميع الجوانب. وساريل قـال بحماس تـام: «سأقـوم بالاعتناء به، فأنا صديقه الحميم. كما انه قام ذات مرة بمساعدتي، والآن جاء دوري لمساعدته. وسـوف أقوم بشفائه مرة اخرىٰ».

وهكـذا أصبح من الـواضح لي عـلى ضـوء السجن الجماعي الذي كنا فيه، اني لم اكن لأستطيع أن أبدو في أحسن حال وجلدي لم يكن منظره جيداً. وتحت تـأثير الاجواء الاستوائية، تحصل أورام عـلى الجلد لا يمكن شفاؤها بسهولة وعلى عموم أطراف الجسم. وبسبب عدم العناية بالجسم، فان وجوه اكثر الرجال تكـون مملوءة بالندب التي يتركها مرض (التوت).

«ساشفىٰ في غضون يومين فقط، ان تمكنت من التحرر من هذا المكان. وان تمكنت من استرجاع سيفي ومسدسيّ الاثنين، وتمكنت من القتال تحت أشعة الشمس.. آه، انها امنية عزيزة!».

«أحسنت يارفيقي! نحن مغادرون في وقت قصير جداً لسفرة جديدة. يعيش فرانسوا لينورماند، ابن القرصان!» قالها العصفور وهو يضحك.

من جانب (ساريل)، فانه قام بالعناية بجروحي على ضوء احد الفوانيس الذي وضعه فوق برميل قريب منا. ولم يكن صديقي بارعاً في عمله، بيد ان ذلك الامر لم يكن ليزعجني. والسماء وحدها تعرف من أين جاء بتلك الليمونة التي كانت في يده، والتي عصر ماءها على جروحي وهيجها. كانت الآلام مبرحة لكنها زالت، وبوقت قصير لمست التحسّن الذي طرأ عليّ.

بعدها قمت بالاستفسار منه قائلا: «هل سمعت متىٰ سنبدأ بالرحلة اخيراً؟»

«كلا»، لكن رجال المدفعية بدأ القلق ينتابهم تدريجياً. والقراصنة الذين كانوا مايزالون أحراراً، لم يرغبوا بوضع انفسهم حتى امام المدافع لسوقهم أسرىٰ، هم الاخرون، من قبل القبطان. وبتصوري فان الفرنسي ان كان يمتلك قدراً قليلاً من الذكاء، فانه كان سيلقي بالطُعْم اليهم، وتأجير السفينة الاسبانية. وكنت حينها كقرصان سأهاجمها فوراً!

«لم نكن متشوقين كثيراً لبلوغ مدينة بريست، وفعلا

فان شيئاً لم يكن ليجذبنا نحو فرنسا!».

أما بخصوص المحاكمة التي كانت تنتظرنا، فاننا لم نكترث بها، كثيرا والامر الذي أثر فينا اكثر من ذلك هو مغادرتنا لتلك الجزيرة اللطيفة.

سألني (ساريل) قائلاً: «ربما يكون الضجر قد أخذ منك الكثير عندما كنت مسجوناً في الزنزانة»! ثم دمدم مع نفسه قائلا: «وربما يصاب المرء بالجنون تدريجياً عند التعتيم الكامل للزنزانة وعلى نحو مستمر!»

«كلا!» أجبت وأنا أهز رأسي. ثم أضفت لاقول: «الشيء الذي افتقدته كثيراً كان تلك النجوم البراقة الرائعة».

نظر (ساريل) اليَّ بتعجب، وكان قد فغر فاه أمام الاندهاش ازاء اجابتي المحيِّرة. وتولدت اثر ذلك فترة صمت طويلة تخللتها بعض صيحات الجرذان بالقرب منا تماماً. بعدها تحدثت عن مغامراتي في رحلاتنا الكبيرة، والتي سبق أن عشتها، وذلك لأنني تمكنت من التفكير فيها تحت في أسفل السفينة وأنا في زنزانتي.

وكنت أود الاحتفاظ دائما بالذكريات الحلوة لنفسي، عندما سيحين يوم الخلاص من القرصنة. وعلى هذه الطريقة اطلقت عنان خيالي لاسرح وامرح فيه في الغالب. لذلك فان خيالي كان قد أصبح جاهزاً لصنع قصة بطولية

صحيحة عند سماع اكثر من اطلاقة واحدة، أو حصول شجار ثنائي. والشيء الوحيد الذي لازم خيالي بكل قوة ولم أستطع التخلص منه هو لألأة النجوم في تلك السماء الاستوائية.. وربما كان ذلك بسبب ان بريقها فاق بريق كل الذهب الموجود في السفن الاسبانية، والذي حصلت عليه من عموم أطراف العالم الجديد. أو لسبب بسيط هو ان كل أحلام القراصنة تدور حول النجوم، مثل الغنيمة التي يستحيل أحياناً الوصول اليها.

وفي صباح احد الايام تم ايقاظنا بالحركات المعهودة، والتي تظهر بأن رحلة السفينة قد ابتدأت، وان الـ «آنجليز» قد رفعت المرساة.

طائر الشؤم الذي كان بقربي قال رأساً: «لقد انطلقنا، وان السفينة تبحر الآن.. وداعاً ياجزيرة تورتوكا.. جزيرة السلاحف!».

السفينة بدأت تصارع الامواج وتنحرف باديء الامر، بيد انها ما تلبث ان تستقر وتشق عُباب البحر في مساء ثابت ورصين. وكنا محشورين جميعاً في ذلك الظلام الدامس، ولم نتمكن من القاء حتى نظرة واحدة على البحر، ولكننا عرفنا اتجاه تلك الرحلة. إذ كنا ربما سنبحر عَبْرَ الساحل الغربي لسانتو دومنيكو، والقاء المرساة في

الجنوب. وعندما نكون قد تجاوزنا بورتوريكو وبعض الجزر الصغيرة قربها، فسوف نعود عَبْرَ الاطلسي الى بلادنا. وكانت سفينة «آنجليز» رائعة فوق الماء، اذ كانت سريعة، وبامكانها المناورة السريعة بالمجاذيف والشراع، فضلاً عن قابليتها في تغيير الاتجاه بنحو عجيب. وكانت رصينة تماماً وترد على نفخات الريح القوية والمؤذية والمعهودة في منطقة الكاريبي بتعقل وذكاء.

عصفور الشؤوم قال معجباً: «آه، لو كان عندي مثل هذه السفينة، لما كنت هنا الآن.. صدقوني!» وكان على الجميع أن يضحكوا لأن اسم عصفور الشؤم لم يكن اعتباطاً في تسميته. اذ لا يوجد قبطان قراصنة مثله فقد عدداً كبيراً من السفن. ولكن على الرغم من كل ذلك فان جميع القراصنة يحترمونه في عموم جزر الكاريبي.

أما زميله (آيزن آرم) فقد ردّ عليه: «بهذه الفرقاطة كنا سنضع منطقة الاطلسي كلها تحت سيطرتنا، ولكن قبل ذلك علينا أن نتعامل مع الاولاد على سطح السفينة فوق!».

كان آيزن آرم رجلاً طويلاً ضخماً. وكتفاه العريضان وفّرا قوة خارقة غير اعتيادية وهذا مادلّ عليه اسمه أي (الذراع الحديدية). والقميص المفتوح الازرار أظهر

صدره الذي رسمت عليه جميع أنواع الاشرعة بـوشم بارز. وكان وجهه مدوّراً على نحو يجلب الانتباه، وتظهر البشاشة عليه. وفي وسط ذلك الوجه استقر انفه الكبير. ومثل اغلب القراصنة كان شعره طويلا. ولكنه كان يربطه عند العنق بقطعة جلد خفيفة. وكانت ثمة ثقوب في اذنيه، ولكنه لم يضع فيها اية حلي. فأقراط اذنه البديعة، التي كان يضعها باستمرار كانت قد اختفت منه فجأة ولم يعلم به أحد عندما أحضر معنا الى سفينة (أنجليز). وعلى الرغم من خشونة صوته، فقد كنت اصغي اليه بكل شوق، وكان حديثه دائماً ـ طبيعياً ـ بعيداً عن التصنع. والتعابير غير الاعتيادية التي كان يستخدمها أحياناً كانت تجذبني اليه. بقوة.

كنت متأكداً من انه ينحدر من عائلة جيدة، أما بخصوص تربيته فانه لم يذكر اصلها الجيد.. وتوجد هنالك كلمات ومواقف تكشف عن اصله والتي يمكن لأي واحد تمييزها، حتىٰ وان كان يسيطر على نفسه تماماً في الحديث احياناً. وبالطبع فاني كنت متحفظاً ازاءه في الاستفسار عن أصله، لأن كل من ينتمي للقراصنة، يكون قد القىٰ بماضيه في الجهة الاخرىٰ من البحر، ويتوجّب أن لا يتم تذكيره بذلك الماضي أبداً. ولم نتحدث نحن عن ذلك

اطلاقاً. وكان كل سؤال بهذا الخصوص سيتم اهماله حتماً. وكل واحد كان يحتفظ بأسرار ماضيه لنفسه، وعلى حدّ سواء، إن كان الامر يتعلق بقصة محزنة أو مضحكة.

ساريل أعلن: «ان سانتو دومنيكو قد أصبحت خلفنا!».

وعَبْرَ أحد الثقوب غير المغلقة بانتظام شاهدنا أواخر جنتنا وهي تمر أمامنا في الساحل الجنوبي للجزيرة بخضرتها المعهودة من حيث أشجار الفستق والموز وأغصان الورد الكبيرة، وحقول قصب السكر الكبيرة الخضراء.

زميلنا المسمىٰ (آين آوگه) (اي الاعور) قال لنا: «هذه الجنة التي كنا نحلم بها، تجاوزناها الآن!» وكان هذا الرجل قد ترك صيد الخنازير مثل صديقي (ساريل) لينزل في الكاريبي وصولاً الى رأس مضيق (گراسياز آديوس) لتكسير رؤوس الاسبان.



الحلم بالحرية:

لم أتمكن من النظر بصورة صحيحة في ذلك الظلام. ولكني اعتقد بأنه قام بمسح دمعة من عينيه خِلسة. وقد عرفت انه ترك قلبه هنا، كما هي الحال عندنا جميعاً، هنا، عاش هذا الشخص بكل حريته، أما الآن فقد انتهىٰ كل

شيء. وروابي الصيد التي كان يخرج اليها لن يراها ثانية أبداً.

عصفور الشؤم لاحظ أيضاً حركة السفينة وقال: «سنغادر الكاريبي عن قريب، وعندها سيكون الوقت متأخراً!» نعم، عندها سيكون الوقت متأخرا.

وحالما نجتاز بورتوريكو، والجزر العذراء، وسابا، والارخبيلات الصغيرة وباربودا. فسوف ينتهي الامر مع الكاريبي. بعده يأتي المحيط الكبير، وهناك ستتلاشىٰ آمالنا مع كل ميل نقطعه خلفنا لرؤية سفينة قراصنة تبدو أمامنا في الافق، والتي قد تأتي لانقاذنا من المقصلة أو السفينة القديمة.

وكان (آيزن آرم) يجلس وحده في احدىٰ الزوايا. وقد لاحظت ان هذا الرجل كان يرغب بالحلم، ومثلي تماما. لذلك فقد ذهبت اليه. وعندما شاهدني قال مرحّبا: «الحظ والنجاح لك ياقرصاننا الصغير!».

فأجبته: «ولك ايضاً ياآيزن آرم».

بعدها ضحكنا بصوت عال، وكان آيزن آرم يدخن غليوناً فارغاً وكأنه مملوء بالتبغ.

يبدو ان جلدك قد تحسن اكثر».

كان جوابي: «لقد بقيت على قيد الحياة».

«هذا أمر جيد اذن»، وربت على كتفي بحيث اوشكت أن اسقط. حينها سحب آيزن آرم نَفَساً طويلاً من غليونه وقال لي: «اننا لم نبحر معاً سابقاً، ولكن عصفور الشؤم حدثني عنك. وأنت كنت مع گلاتزكويف!».

«صحيح».

لقد كنت على سفينة «راگور»، ومع (پيير) الاسود.

«نعم، أعرف ذلك».

بعدها انهمرت الذكريات عندي ثانية: پيير الاسود، گلاتزكويف (الاصلع)، والمغامرات التي شهدتها معه، وموته، والملاحقات الوحشية عبر عموم الكاريبي.

«والان، ونحن في المحيط الاطلسي، علينا أن نساعد بعضنا البعض، ألا تعتقد أنت ذلك أيضاً».

«من أجل الخروج من هنا ياآيزن آرم».

«بالطبع! ولكن مازال الوقت مبكراً. إذ أن على الجنود البحارة طرد حالة الريبة من نفوسهم إزاءنا. وعلينا الانتظار. وعلينا أن نولد شعوراً لديهم بأننا قد استسلمنا. وعلينا ان نموّه عليهم. كذلك فاننا سنقوم بطمأنتهم اكثر واكثر عندما نتصنّع العمل وكأننا عبيد يتم اقيادهم منذ ثلاثة أشهر الى اميركا، وبأن مصير هؤلاء العبيد قد حسم نهائياً. ومع زملائنا».

قلت: لكننا ثلاثون فقط، ياآيزن آرم.

فقال: صحيح، وهذا العدد لابأس به، أليس كذلك؟

ـ ان طاقم السفينة هو مائتا شخص تقريباً!

ـ لكن هل أن هؤلاء واثقون من أنفسهم مثلنا؟

ـ ربما لا، ولكن لا تنس انهم سبق ان تغلبوا علينا.

ـ صحيح. ولكن بارودنا نفد وقتذاك. حسن. نحن الآن ليس لدينا ما نخشىٰ فقدانه.

لم يقنعني (آيزن آرم) تماماً وقد اعجبت بصراحة من حيث ثقته بنفسه وايمانه بالمستقبل، وخصوصاً تلك السكينة التي كانت تنبعث من أعماق نفسه عندما تحدث عن فرصتنا الاخيرة في الخلاص، وعلى الرغم من كون البعض منا سيفقد حياته في تلك المحاولة القادمة.

اضافة الى ذلك فقد سألني: «هل تعرف شيئاً أثمن من الذهب؟».

ثم بدأ يسحب نفساً من غليونه بقوة.

ـ لا والله.

ـ نعم هناك ما هو أثمن منه ياابن القراصنة، وتلك هي الحرية!

صمت مدة طويلة. نعم، الحرية اثمن من الذهب اذا ما امتلكها المرء. وهي مثل الهواء الذي يستنشقه المرء..

ولكن عندما يمسك أحد برأسك تحت الماء..

الحرية....

الآن كنا قد اجتزنا الجزر. فجزيرة سابا وباربودا اصبحتا خلفنا الآن. واحلامنا بالحرية يمكن أن نطردها من رؤوسنا.

وأحد افراد جماعتنا من الجالسين على السطح بدأ بأغنية بصوت دافىء وحنون فجأة، والبقية تجمعوا حوله على هيئة دائرة، وأنا قمت بالانضمام اليهم أيضاً. وقمنا جميعاً بترديد اغنية حزينة. وكانت الموسيقى التي رافقت اغنيتنا هي أصوات الامواج التي ارتطمت بجذع السفينة. وقد جال بصري بوجوه هؤلاء الرجال البرونزية وقد ميزت في بريق اعينهم أنهم قد استردوا شجاعتهم وعزمهم على ضرورة العودة الى البحر الكاريبي.

وكانت رائحة الرياح معبقة بعبير المغامرة، والبارود والملح والزهور المختلفة العطر والالوان.



سمكة في السنارة:

سفينة (آنجليز) كانت تبحر بوساطة الشراع صوب الجنوب الغربي. ومنذ أن تركنا منطقة الجزر بدا البحر وكأنه فارغ. وقد أبحرنا ثلاثة أيام صوب الشرق. كانت الحياة على ظهر السفينة تسير برتابة تامة. وكان التبديل

الوحيد الذي طرأ على حياتنا هو الجولة لمدة ساعة على سطح السفينة وهي جولة كنا نمارسها كل يوم.

«بامكانكم الحديث، ولكن بلا تحركات فجائية، اواضح ذلك؟ وإلّا..!».

وقد صعدنا الى فوق عشرة عشرة، ورجال البحرية يحيطون بنا على شكل دائري. وبذلك كان حراسنا مسيطرين على حركاتنا تماماً. والانسان يتطبع مثل الحيوان على بعض العادات وبسرعة، ليدخل في روتين يومي قاتل. كنت اقوم بتلك الجولة اليومية مع زملائي المعتادين أنفسهم. ويعد (ساريل) من ضمن مجموعتي بالطبع ومعه آيزن آرم، وجين جوبير، وآين أوكة، وايفز ومعهم بعض الاشخاص الآخرين.

وقد أثار منظر البحر المتحرك فينا دائماً الرغبة في الحياة. والمحاط بأزيز الرياح وارتطام الامواج، شعرت براحة اكبر في المحيط وكأنني في عقر داري. لكن لون المحيط بدا لي وكأنه قد تغير، وطعم الرياح لم يعد نفسه مثل السابق.

ساريل أراد البدء بالحديث قائلا: «في تورتوكا..!».

فقاطعته رأساً بالقول: «اغلق فمك، فأنا اريد التفكير بشيء آخر!» ثم ذهبت الى آيزن آرم الذي كان يجلس على

أحد المدافع بالقرب منا.

بعدها قال آيزن آرم بصوته المعهود: «ان البحر هادىء. وسوف يبقى الجو هكذا في الاقل مدة ثمانية ايام. اذن فالبحارة لديهم استراحة. وهم ينامون طوال اليوم، أو يحلمون في ارجوحاتهم المعلقة.

ثم بدأت بالنظر الى السماء. كانت هناك بعض الغيوم البيض بادية في الافق، والتي سيزيحها الهواء حتماً في غضون مدة قريبة. وكان لآيزن آرم الحق بأن يقول: «صحيح».

فرددت عليه بالقول.. «ونومهم هل هو ملائم بالنسبة لخططنا؟».

«كلا»، فان البحار المرتاح هو جندي جيد. ونحن بنا حاجة الى عاصفة مفاجئة وعلينا الانتظار الى أن يتعب الرجال في أعمالهم المتشعبة، بعدها بامكاننا القيام بالاعمال التي نريدها على سطح السفينة.

ـ وكيف ذلك؟

ـ في ضربة مفاجئة.

ـ اذن ستنتظر العاصفة؟

آيزن آرم أجاب بالموافقة وقال: «وللاسف فاننا قد غادرنا تواً منطقة العواصف، يارفيقي الصغير!».

وفي اثناء تلك المدة كان آين أوگة قد قام بعمل جيد، اذ تمكن من الدخول بحديث مع أحد جنود البحرية. كان محدّثا جيداً، هذا المحتال. وبلهجته الجنوبية (وكان نادراً ما يقول انه شمالي) كان يتحدث عن حنينه الى طولون، ويقول إنه ولد في الحانات. وهذا الامر لم يكن صحيحاً، ولكن ذلك الطرح كان يولد شعوراً بالمشاركة الوجدانية. وكان ذلك الجندي المسكين ينصت اليه بكل لهفة وشوق.

«لدي هناك في الجنوب بعض الاصدقاء، وبالنقود التي خبأتها في أحد الخلجان المسماة (بانكواليسيا) بامكاني ربما...».

وكان صوته مسموعاً عندنا أيضاً.

«بانكو..؟».

«نعم، وتلك جزيرة صغيرة تقع في الجنوب الغربي من جامايكا، وسهلة من حيث ايجادها بالنسبة لشخص يعرف المنطقة جيداً.. ولكن للاسف فقد انقضىٰ الامر.. وان اصبح بامكاني في أحد الايام»... وسكت برهة عن قصد، وترك الهواء يرتطم بوجهه. وقد كون آين أوگه شخصية مرموقة عند ذلك البحار المولول قربه، والذي كان ربما قد استؤجر ضد رغبته، كان زاده الوحيد يتكون من الضرب فقط لا غير. وكان يلبس الى جانب بدلته التي

لفحتها الشمس وغيّرت لونها، قماشاً مطرزاً أضفىٰ على شخصيته طابعاً مرموقاً اضافياً. وكانت قطعة الجلد التي يغطي بها عينه اليسرىٰ قد تمزقت جراء العَرَقْ، ولكنها كانت شاهداً على أعمال بطولية عديدة، وعلى اكثر من حملة نهب واحدة. كل ذلك كان يدلل على انه كان قد حصل على غنائم وافرة في الكاريبي وكوّن ثروة لديه. وفي الواقع فانه لم يكن هناك ادنىٰ شك بأنه كان قد خبأ كنزاً خرافياً في بانكو أليسيا.

والبحار المسكين كان قد اضطرب جراء سماع تلك الاخبار المثيرة وامتلأت يداه عرقاً. وبدأ باللعب باضطراب ببندقيته وسحب آين اوگة الى احدىٰ الزوايا.

حينها أشرت الى آين اوگة وقلت له: «لقد علقت السمكة بالسنارة!» «على مهلك ياصديقي.. ان الامر يستغرق دائماً بعض الوقت، الى ان يتم سحب العدو ليصبح حليفا. فالغبي يجب أن يتعود على الخطة التي يطبخها في رأسه. بعدها تتولد لديه شجاعة وجرأة، يتمكن من خلالها دعوة بعض اصدقائه للتعاون معه. وهذا امر جيد، ويقوم بتحسين التوقعات في نجاح خطتنا. قبل ذلك ليست بنا حاجة للقيام بمحاولة اخرىٰ.

ساريل صاح قائلا: «انظر هناك وبحذر، فان البحار

يعطي لآين أوگة بعض زوادته. وتلك علامـة جيدة. ولا اعلم ان كانا يتعاهدان الآن فيما بينهما سرياً».

«كلا.. ان هذا نوع من التحالف!».

وكنت من ناحيتي أفكر في خطة لمحاولة القيام بعصيان على سطح الباخرة جذابة ورائعة. وسوف أقـع فوراً في خضم المعارك وبلا اكتراث. وكان عليّ أن أستجمع قواي لكي أصمد في ذلك الميدان كنا جميعاً نفكر ملياً في تفاصيل تلك الخطة وكيفية ترصينها.

وحيث ان المرء يحتاج الى قائد في امور مثل هذه، فقد قمنا بالتصويت فيما بيننا لنختار الشخص المناسب لهذا الموقع، اي نختار قبطاناً جديداً. وقد انتخبنا جميعا (جان جوبير)، والذي كان مساعداً للقبطان پيير الاسـود على سفينة (راگور). فقد كان من مدينة بريست، وكل واحد منا كان يعلم بأنه لم يكن ليهتم بالعودة قيد أنملة. كان يقول دائماً: «أحب اليّ أن أزحف على البحر. ولكن عندما نضع الفرقاطة تحت سيطـرتنا، فسـوف نكون أقـوياء لدرجة تكفي لتحدي حتى مدافع بريست!».

«هذا حديث جيد ياجان جوبير!» قالها آيزن آرم وربت بقوة على كتفه.

لكن عصفور الشؤم ردّ بالقول: «غير ان الابحار أمام

الساحل الفرنسي لن يعود علينا بالنفع الكثير!».

«ان هذه لا تتعدى كونها نكتة صغيرة، فنحن لم نصل بعد الى ذلك المستوى!» قالها الكابتن الجـديد. وكـانت نظرته الثاقبة تتفحص كل واحد منا بتمعّن. وقد تطلع اليّ بكل دقة ولمدة طويلة، ونظر الى عينيّ تماماً مثلما فعل مع الآخرين. حينها علمت بأني قد كسبت ثقته، تماماً مثل الآخرين. وقد تصديت لنظراته، ونظرت اليه على طريقته في أعماق عينيه.

كان وجهه مملوءاً بالشقوق التي سببها لـه البارود، وسبق أن اصيب بطلقة في وجهه اثناء احدى معاركه مع الاعداء.. وكان يكرر قوله دائماً: «ان إيڤز المقدس قد منع الاطلاقة عني. وانا مستمر بالعيش. انني لا أبدو جميلاً مثلما كنت سابقاً، ولكن هذا الامر لا يقدم أو يؤخر شيئاً مادمنا على سطح البحر».

كان جالساً على أحد البراميل، ويقوم أحد الفوانيس باضاءة قدميه وبذلك فانه كان يبدو قبطاناً بحق. وكان يثير أعجابنا جميعا وبقوة. ولكن السماء كانت تعلم بالخيالات التي كانت تعذبني في تلك اللحظات. وكان يخامرني شعور مبهم بأنه لم يكن ذلك الرجل الذي سيقود قتالنـا ضد الاعداء. ولم تكن لدي اشياء ملموسة لهذا الامر. وربما لم

اكن على صواب. وبالمناسبة فان الامور لم تسر على تلك الشاكلة التي وضعناها نحن نصب اعيننا. وذلك لم يثر دهشتنا. فالقراصنة يعرفون كيفية استخدام الريح عند هبوبها، ولكن ماعدا ذلك فان كل بحار يجب أن يحسب حساب الامور غير المتوقعة تماماً.

وللمرة الاولى منذ ايام، بل منذ اسابيع هبّت الرياح مثلما كنا نشتهيها.

«هل تسمع؟» سأل ساريل وأضاف: «إن البحارة يركضون على السطح. وبامكان المرء أن يقول».

كان آين أوكة يستند الى مرفقيه وهو ينصت الى ذلك الحديث.

«وربما يمكن للمرء أن يقول بأنهم يتهيأون لمناورة بالأشرعة ان كان الهواء جيداً».

أما عصفور الشؤم، فانه قال: «أن امراً مثل هذا لا يمكن أن يحصل هنا اطلاقا. وان الخرائط بيضاء مثل كرة عيني!».

كان الافضل له ان يسكت، لأن كل واحد منا كان يعرف عدد السفن انتي غرقت تحت قيادته. وتم سماع أصوات اخرى.. فقال آيزن آرم:

ذلك صوت المدافع يبدو الامر وكأنهم يستعدون لمنازلة

قادمة»

اما من ناحية جان جوبير، فانه كان يدور هنا وهناك في سجننا. وكانت قبضات يده موضوعة في أماكن مسدساته الغائبة، وبقي واقفاً برهة ليقول: «زملائي، اما أن يكون جنود البحرية يقومون بتمرين أو أن هناك خطراً ما، بالنسبة لنا فان ذلك امر جيد. وعليه فان عليكم ان تستعدوا».

هذا كلام جيد».

«أحسنت».

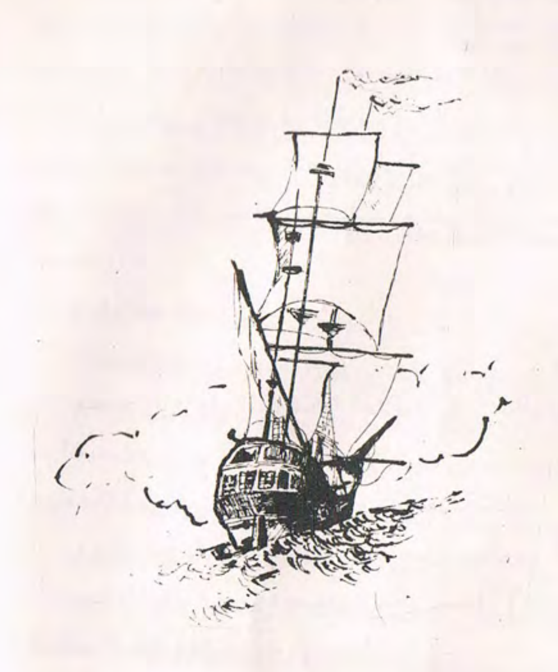
«نحمد الله على انهم فكوا أغلالنا»، قلت ذلك لساريل ثم أضفت:

«هكذا سوف نتمكن من الحركة بحرية تامة».

وفجأة فتح باب السجن الذي يفصل بيننا وبين الطابق الاوسط للسفينة، ومعه صوت مدّو ونزل (١٢) رجلاً السلم الى الاسفل.

وكان أحد البحارة يحمل مصباحاً في يده ليضيء الطريق لاحد القادة، الذي أعطى امراً فورياً بالقول: «هيا، ضعوا القيود في أيادي الجميع! وعندما نغرق فسوف ينتهي أمرهم مع الفئران».

بعدها حصلت حركة في سجننا.



«أترى ياساريل، لقد فرحت في وقت مبكر جداً».

نعم، ويتوجّب على المرء أن لا يستشرف المستقبل»، قال ذلك ساريل ورسم علامة الصليب على نفسه.

بعدها تقدم (آين اوگة) نحونا وقال: «انظروا، ان

البحار الذي كنت معه قبل أيام قد وصل مع هذه المجموعة. وان الامر يبدو وكأنه يبحث عني. ولا أعرف ان كان يريد التحدث معي بخصوص دار التشغيل في طولون أو بانكو أليسيا».

«نعم. لديك حق. اعطه إشارة!».

كان الرجل قد شاهد ذلك الحديث، وكان قد حضر معه اثنان من البحارة صوبنا، وقد بقيا واقفين ليحجبا نظر آمرهم عنه.

وبسرعة قام البحار بالايضاح لآين اوگة «ان قصتك بخصوص بانكو.. بانكو..».

نعم، ثم ماذا؟».

«ان القصة التي أوردتها لي تهمني، وأنا وزميلاي الاثنان نريد أن نساعدك».

«حسن، ماذا يجري فوق؟».

عندها تردّد البحار في الاجابة.

«هيا، تكلم، ماذا يجري؟»

«لن تصدق! لقد ظهرت امام سفينتنا اربع سفن تحتاج الى انقاذ بسبب العواصف، والكابتن يفكر بخدعة حربية!».

«وماذا أيضاً؟».

«ماذا؟ انه يفضل أن يقيدكم بالسلاسل ثانية، وعندما تغرق السفينة..».

هذا يكفي! وماذا بامكانك أن تفعله لنا؟»

«سأعمل وكأني أقيدك بالسلاسل ثانية، واترك المفتاح عندك لفك قيود الآخرين!».

«ممتاز، ياصديقي!».

«وماذا عن بانكو آ...؟».

«لن أنساك بهذا الخصوص. وسوف نتقابل ثانية حتما!».

والمسكين بدأ بالضحك في ذلك الظلام فرحاً، وكانت عيناه تلمعان طمعاً.

وكان يلكزنا ويقول: «هيا، تحركوا ياأهل الكاريبي! هذه ارادة الله أن تكونوا طعماً لاخوانكم!».

وكان يضحك بخبث وصديقاه الاثنان يقومان بالحركات ذاتها.

«هاك، خذ»، وهمس باذن آين أوگة.. «وسوف تتمكن من استخدامه بنحو صحيح!» ثم دسَّ خنجراً تحت قدمه.

ولم يكد اولئك الجنود يغلقون ذلك الباب، إلّا وقام آين أوگة ليفتح أصفادنا مجموعة بعد اخرىٰ. وفي غضون دقائق قلائل عدنا جميعاً احراراً.

«لقد كانت حملة جديدة، ياآين أوگة، والان علينا أن لا نضيع ولا ثانية واحدة!» قالها القبطان الجديد ممتدحاً إياه.

«صحيح جداً، ياجان جوبير، وأنا اريد العودة ثانية الى الشمس!».

وقام آيزن آرم بالركض نحو البوابة التي تفصل السجن عن الطابق الاوسط وقال: «لا يمكننا عمل شيء هنا، فالبوابة موصدة بلوح سميك».

وان قمنا بالمحاولة لفتحها بالقوة؟».

«هذا الامر قمت به أنا بالطبع ياكابتن!».

«اذن لم يبق امامنا غير الانتظار الى ان يتم رفع الالواح الخشبية..».

«الالواح الخشبية؟ وبهذا الخنجر يمكننا ربما فتح احداها». وكان هذا مقترح آين أوگة.

«حسن جداً، الى العمل اذن! وسوف نبدأ بالالواح الخلفية التي لا تغلق جيداً».

هذا الامر يمكن أن يستغرق وقتاً لا بأس به. وان كسرت السكين، فان ذلك هو حظنا السيء للخروج من تلك النقطة. ماعدا ذلك فان بالامكان قيام شخصين بالعمل على ذلك الخط من دون عائق.

كل هذه الامور خطرت في بالي. وقد خطر ببالي ايضاً القيام بعمل آخر. لذلك أرسلت آيزن آرم الى القبطان وقلت: «في الوقت الذي يتم فيه العمل لكسر الواح المخزن سيكون بامكاننا المحاولة لتوفير مخرج آخرلنا. وبهذا فان لدي فكرة بهذا الخصوص».

«هيا تكلّم يابحار!».

«الآن، وحيث يكون البحارة منشغلين مع أنفسهم، فان امر مراقبتنا ربما يكون ضعيفاً».

«صحيح، وماذا اكثر؟».

«بامكاننا صنع ثقب ربما!».

«وأين، على السطح؟».

«لا، لأنهم سوف يسمعوننا ان قمنا بذلك».

«على الحائط الجانبي؟».

«بامكاني السباحة في الحقيقة، ولكن... كلا.. كلا.. يجب علينا البدء في الاماكن التي لا يسمعوننا فيها. هناك تحت على الارضية. وعندما نصل الى مناطق المخزن..».

فصاح الكابتن:

«ممتاز، وليذهب جميع الرجال الى أعمالهم».

آيزن آرم وجّه لي وكزة الى اضلاعي وقال: «أحسنت أخي الصغير»!

والآن أتى دوري. وسوف ترى كم من الاعمال استطيع إنجازها.

انها ليست قصصاً فقط تلك التي يتحدث بها الناس عني في المشارب وعلى جزيرة تورتوكا أو في (پورت دي پاي)!

وقد موّه علينا صوت الموج المتراطم بأجزاء السفينة حقيقة ان السفينة كانت تبحر بسرعات مختلفة. وفي حالة سفينة (آنجليز) كان بامكاننا، استنتاج الاتجاه التي هي سائرة فيه.

مضى الوقت وكأننا في طائرة. ومن الواضح فان معظم أفراد الطاقم كانوا في اضطراب كبير. وشعرنا بأنهم لم يخصصوا احداً للاهتمام بنا ومتابعة امورنا، ولم يكن لدينا احتجاج على ذلك. ولكن كيف سيكون بامكاننا معرفة ما يدور خارج المكان الذي كنا فيه؟

آين أوگه ولول قائلاً: «آه، لو كان بامكاني القاء نظرة واحدة فقط على البحر!».

كان للحنين الى الحرية والاعمال الكبرى اثرٌ في عودة الرغبة بالحياة الينا. وقد أصبحنا في خضم الخلافات. والمغامرة هي بحد ذاتها تجارة كبيرة.

إيڤز صاح قائلاً: «الشجاعة فقط يا أصدقائي، فسوف

نعبر حالا!».

علماً بأن ايفز كان يعمل بالسكين.

أن عملية قشط الواح الخشب التي قمنا بها بالخنجر كانت قد بدأت بنيل النجاح. اذ كنا قد قمنا بانجاز واحدة منها. لكن صيحة الفوز كانت مبكرة قليلا. وكنا نحتاج الى وقت طويل وجهد اكبر لغاية بلوغنا للهدف. وكنا نتناوب دائماً على العمل نفسه.

أما أيزن أرم فانه اكتشف منطقة ضعيفة على الارضية. وسوف يتم جلب كومة من الألواح مركونة على جانب الغرفة التي كانوا فيها. بعدها قام بالتفكير بحيلة جيدة تضيف الى قوانا قوة اضافية اكثر، إذ قام باسناد لوح خشبي على سطح البوابة من طرف، وعلى السلّم الخشبي من طرف آخر. وبدا بالضغط بقوة خارقة على تلك النقطة الضعيفة. وبدأ فعل تلك اللوحة يظهر بوضوح على منطقة بين لوحين من الالواح لتنكسر محدثة ضجيجاً كبيراً. وتمت إعادة تلك الطريقة على مناطق متعددة في المكان نفسه.

«أترىٰ شيئاً؟» سأل ساريل ذلك الرجل الذي كان دوره في العمل على تلك الطريقة.

لا شيء. ولكني استطيع الشعور بالهواء. وفي غضون

دقائق سيصبح بامكاننا رفع لوح كامل والخروج الى اعلىٰ».

انه لم يبالغ بكلامه. وبعد خمس دقائق انبلج السقف علىٰ هيئة مربع ليظهر السماء الزرقاء الرائعة على جدار السجن الذي كنا فيه. بعدها رأينا السفينة وهي تترنح، كما ان المحيط الاخضر الداكن ظهر في مدىٰ ابصارنا. ربما كانت تلك هي الحرية أخيراً لنا جميعا. حينها ركضت الىٰ تلك الفتحة من أجل استنشاق هواء ماء البحر المالح.

سألني القبطان: «ماذا جرىٰ للسفن، هل ترىٰ شيئاً ياصغيرنا؟»

كان عليّ ان ابلع ريقي. وازاء دهشتي لم اكد استطيع التحدث والكلام. ورددت بصعوبة: «نعم! اني ارىٰ.. اني أرىٰ».

والاضطراب الذي كنت فيه ابتلع ما تجمع لديّ من كلمات فصمتّ.



اربع سفن مجهولة:

سفينة (آنجليز) أعطت جهتها للسفن الاربع، لتكون نيران مدافعها مصوبة نحو تلك السفن التي لم تكن اكثر من قوارب شحن مسكينة. إذ لم يظهر عليها أي أثر للمدافع، أو للقوة، أو لبكرات تحميل، أو للصواري أو

لأسلحة حربية مخيفة. كلا، وكان لا يبدو عليها الا الفقر.

«انظر هناك»، قالها ساريل وهو يشير الى الخارج وأضاف:

«انهم ينظمون أشرعتهم ويناورون بقوة. وان (آنجليز) تقتفي اثر تلك القوارب».

هل انهم بعيدون عنا؟ سأل أحد الرفاق من الذين لم يستطيعوا النظر من خلال الفتحة.

«كلا، انهم على بعد حوالي ٤٠٠ متر فقط!».

وكنت قد تسلّقت على أحد الاعمدة لرغبتي في رؤية المعركة تماماً. وكنا نسمع أصوات الاوامر من على سطح السفينة وباستمرار والتي كانت توجه الى رجال المدفعية. كان اولئك الرجال يعملون بهمة، كل على مدفعه فضلاً عن قيامهم بنشر الرمال على سطح السفينة، لكي لا ينزلقوا لاحقاً على الدماء التي قد تتصبب على السطح.

«انفخوا الكبريت»، تردد الصدى الينا في الاسفل وسمعنا هذا الامر أيضاً.

وقد حاولت القوارب الاربعة الشجاعة التملص بلباقة. ولكن لم يكن معروفاً امكانية خلاصهم من خط نار المدافع الـ (٢٤) التي كانت على ظهر سفينتنا. ساريل كان يقف بالقرب مني ويردّد الصلوات بهمس غير

مسموع.

ثم صدر الامر التالي أيضاً: «ضعوا الخراطيش في المدافع!».

لطمة هواء! وعلى اثرها انحنت القوارب على سطح الماء. كذلك فان سفينة (أنجليز) أعطت جهتها للقوارب الاربعة.

حسن! فان ذلك سيزيد الامر صعوبة بالنسبة لرجال المدفعية. وقد قلت مع نفسي انهم لن يتمكنوا من تهيئة المدافع والسفينة على هذا الوضع. لكن القائد كان سيتخذ اجراءاته لتلافي ذلك، بحيث تعود السفينة الى سابق وضعها.

«تهيأوا»!

«المدافع في وضعها الصحيح»!

ولم يكن بالامكان تحمل اللحظة المصيرية اكثر! كانت سفن القراصنة ماتزال ضمن مرمىٰ مدفعية سفينتنا، وجهتها الامامية موجهة صوب سفينتنا متحدية. أو لم يكن ذلك انتحاراً؟

وبهدوء يشوبه الحذر، مرّت بعض الثواني الحرجة. وكنت قد قطعت أنفاسي من شدة الانبهار.

بعدها صدر أمر بصوت جهوري: «أغرقوها! اطلقوا

النار»!

ثم سمعنا فوق رؤوسنا انفجاراً مدويا لا يصدق. وعندما إنقشع دخان القذيفة، تمكنا من تحديد الخسائر. ولم يكن الامر بذلك السوء الذي خشيناه قبل دقائق، كانت خسائرهم فقدان احد أشرعة قارب من القوارب فقط. وكانت القذائف تتساقط هنا وهناك حول القوارب وتحدث فورانا كبيراً في مياه البحر التي تسقط فوقها، لتغطي مياهها القوارب القريبة منها.

«فليعش.. انهم احياء»! صاح ساريل، في الوقت الذي قام فيه رجال المدفعية بحشو المدافع مجدّداً وأضاف: «وربما سيكون بامكان القوارب أن..».

نعم، وان لديهم وقتا قصيراً جداً، والمسافة التي كانت تبعدنا عنهم ليست كبيرة.

«أحشوها»! صاح قائدهم باعلىٰ صوته.

ان الكسر الذي احدثناه في خشب السقف كان قد اخذ مدىً كبيراً جداً بحيث تمكنا الآن من الرؤية من خلاله بنحو افضل، والثقب الذي سبق أن دقه (آيزن آرم) على الارض، كان بامكانه ان يُمرّر شخصاً من خلاله.

«آمل ان نتمكن من الخروج من هنا في الوقت المناسب». قال ذلك جان جوبير واضاف: «ان زملاءنا فوق

هم بأمسّ الحاجة للمساعدة، ولكنهم يستحقون ذلك»!

وقد استغليت استراحة القتال القصيرة لارىٰ ما قطعه ايزن آرم من شوط في عمله. وكان يبذل جهوداً مضنية في ذلك. وعندما كانت عضلاته تتحرك تحت الجلد، بدت السفن الشراعية الموشومة على صدره وكأنها تترنح. ولكن ولذلك السبب لم آت أنا. وقد نظرت الى ذلك الثقب في الأرضية.

«بالنسبة للرجل يعد ذلك الثقب صغيراً، ولكنه يكفي بالنسبة لي»!

ثم انطلقت الرشقة الثانية من المدفعية فوقنا. وقد كنت قد دخلت لوسطي في ذلك الثقب، وكنت افكر بما سيحدث لي أثناء القفز الى المخزن. فهل كانت هناك صناديق أم براميل؟ ثم وجدت نفسي احطّ فوق اكياس من الطحين.

«احسنت ياصغير»! صاح جان جوبير من خلال الفتحة التي سقطت منها.

«ارموا اليه بالخنجر، فقد يحتاج اليه»!

ثم سقط السلاح بقربي على الارض، وبحثت عنه في الظلام حتىٰ وجدته أخيراً. وانه لامر مريح ان يكون لدىٰ المرء خنجر في اليد.

«شكراً، ياكابتن! وسوف احاول ازالة الالواح

السميكة، التي تقفل باب الدرج. ولكن ارسلوا إليّ تعزيزات على أية حال».

آيزن آرم صاح صوب الاسفل قائلاً: «هذا امر سيحصل قريباً حتماً وسوف أحضر اليك»!.

ثم بدأت بالحركة وأنا وحيد. كانت دقات قلبي تسمع بوضوح. وعلى الرغم من كوني بلا قميص، فقد شعرت بالعرق يتصبب من جسمي كله. كذلك فان قطرات العرق سالت الى عينيَّ أيضاً. وكان هذا الامر مزعجاً، ولم اتمكن على اثره من الرؤية بوضوح. لذا فقد أخذت الخنجر ووضعته بين أسناني، وذلك لتبقىٰ يدي حرة طليقة. بعدها استدرت نحو الخلف لارىٰ الثقب الذي انحدرت من خلاله. وكانت هذه الفتحة تصغر كلما ابتعدت عنها. وكنت افكر بزملائي وبقيت على جلوس القرفصاء. لكني لم استمر بالسير أطول. وفجأة القت بي ضربة قوية على الارض. وبقي حينها عندي المزيد من الوقت لأتأكد من اني فقدت السلاح..

فهل ان (انجليز) دارت في مكانها، هذا امر لم اتمكن من التثبت منه في الظلام. وعندما أفقت من صدمة الضربة، كانت جمجمتي تئن. وقد شعرت بشيء لزج وعلمت مؤخراً انه (الدم). بعدها تفحصت الارض بحثاً

عن خنجري، ووقفت كالغبي هناك بلا سـلاح. وفي تلك
الاثناء كانت المعركة محتدمة فوق على سطـح السفينة.
والدم الذي كان ينزل من رأسي بدأ يغمر عيني واهدابي
التي بدأت تلتصق. بعدها وجدت خنجري على بعد يسير
مني. وبضربة واحدة عادت الشجاعة اليّ. ورأسي لم يعد
يؤلمني بذلك القدر كنت في حالة عطش شديد، ولكن لم يكن
هناك المزيد من الوقت للاكتراث بالامر. ومثـل الأعمىٰ
بدأت بالتهجس على الاكياس الممتدة على طول السفينة.
وفي تلك الاثناء تصـورت اني وجدت مخـرجاً من ذلـك
المكان، ثم واحداً آخر. وقد فقدت توازني تماماً حينها..
وان لم يحالفني الحظ، فسابقىٰ هناك مدة طويلة ادور بلا
فائدة. وكان همي الوحيد هو ايجاد المخرج وبـالسرعة
الممكنة. وفجأة سمعت أصواتاً منبعثة من المخزن الذي
كنت موقوفاً فيه. وربما كان اولئك القادمون هم بحارة من
السفينة، وهؤلاء لم يأتوا بالتأكيد من أجل تحريري. وفي
أحسن احتمال بامكاني قتل واحد واثنين منهم، ولا أكثر
من ذلك. ثم أمسكت يدي بقبضـة الخنجر بقـوة اكبر،
ومرت دقائق اكثر. بعدها سمعت البحارة يتحدثون فيما
بينهم، اضافة الى قعقعة سلاح واوامر، وربما كان ذلك
صادراً من مجموعة عمل. ولمحاسن الصدف فان الوقت

لم يحن بعد لأخذ الطحين من أجل اعداد الخبز للبحارة.
بقيت واقفاً هناك بلا حراك الى ان انصرف الـرجال، ثم
عاودت البحث المضني في المكان نفسه.

وقد تصورت باديء الامر باني قد عرفت مجمل مسار
الامور من أصوات جلجلة أقدامهم. والآن كنت اسمـع
وقع اقدامهم وهم يبتعـدون عن المكان الـذي كنت فيه
صاعدين السـلالم.. وربما تـوجهوا الى قمـرة القيادة
حسبما بدا لي. وكان معلوماً لدي ان خرائط بناء السفن
كانت واحدة عند الجميع، وأخيراً فقد علمت تقريباً المكان
الذي كنت فيه على الرغم من عدم معرفتي بتفصيـلات
أماكن السفينة. وكان هذا الامر صحيحاً ولم أتوهم فيه.
وقد توجهت نحو اليسار وبحثت عن السلّم، والذي كان
يتوجب أن ينتهي هناك، وصادفتني عشرة علـى الارض.
قمت على اثر ذلك بتفحصها بقدمي وكانت تلك هي درجة
السلّم الاولىٰ. عندها بدأ قلبي يتراقص فـرحاً وقلت ان
الانقاذ بات وشيكاً! فالسلالم كانت ستؤدي الى الحرية،
وهذا الامر كنت متأكداً منه. ولم أعلم ان كان باب السلّم
مفتوحاً ام لا؟!. ثم صعدت السلالم راكضاً، وكنت فعلا
بالخارج! وقد إتقدت في نفسي كـل عناصر الفـرح التي
تنطلق عند القراصنة على البحر في هذا اليوم.

ثم قمت بالتنصت.

وكان السكون يلف المكان الذي حولي. وكان صوت ضجيج يقترب مني من على مسافة لا بأس بها. وكانت تلك أوامر، وصيحات، وضربات قوية، وانفجارات و.. وتصاعد أوامر المعركة.. ولم يكن معلوماً لديّ ان كان بالامكان مساعدة زملائنا وانقاذهم؟

ولم يكن خلفي شيء يمكن سماعه. كذلك فاني لم اتلق أي تعزيز من ذلك الذي وعدني به (آيزن آرم) من خلال ثقب الارض. وربما يكونون قد تاهوا بين أكياس الطحين في عتمة الليل تلك!

ولم يعد النزيف في يدي ينضح بغزارة مثل السابق. وحاولت أن أتأكد وبسرعة من المكان الذي أنا فيه. ولذلك سرت اولاً صوب اليسار، ثم الى اليمين حول احدىٰ الزوايا لأدخل في طريق مسدود. وبعد دورتين وصلت الى نقطة انطلاقي الاولىٰ. كنت غاضباً، لكن هذا الغضب منحني قوة مضافة قادتني الى الطريق الصحيح إذ شاهدت أمامي ضوءاً ضعيفاً، انطلقت فوراً نحوه، وكان من فانوس معلق على احد جدران السفينة. انتزعته من مكانه لأني كنت بحاجة ماسة اليه، ثم نزلت السلّم.. وأخيراً وصلت الى مدخل السجن الذي كنا فيه! الممر أصبح

واضحاً بالنسبة لي تماماً، لأنني كنت اتمشىٰ فيه كل يوم مرات ومرات عندما كان يسمح لنا بالصعود الى السطح. وكانت هناك أيضاً الالواح الخشبية التي تغطي باب العنبر وتغلقه. ولم يبق ادنىٰ شك بأن زملائي كانوا في الداخل هناك. لذا قمت بوضع الفانوس النفطي على الارض، وبدأت بعملي المضني. والامر الذي لا يصدق هو مدىٰ القوىٰ الخارقة التي يمكن للانسان أن يوقظها بداخله، عندما تقتضي الضرورة ذلك، ويتوجّب عليه الوصول الى هدف معين. ولم يكن بتصوري ابداً، امكانية قيامي برفع ألواح خشبية بذلك الحجم وبتلك المدة القياسية، وكان الهدف قد بدأ يقترب من انظاري. بقيت هناك بعض الالواح.. ثم سمعت صوتاً خلفي يقول لي: «هل تحتاج الى مساعدة ايها الشاب؟» بقيت لحظة منحنياً فوق الخشب الذي كنت أعمل عليه. وقد تجمد الدم في عروقي في تلك اللحظات العصيبة. فهل يضيع كل شيء قمت به في لحظة واحدة؟

وببطء قمت بوضع الالواح على الارض ونهضت للوقوف على مهل. ثم.. ثم بقي لي جزء من الثانية لالتقط خنجري الذي كنت قد زرعته في أحد الاكياس أمامي. وتنفست بعمق.

ثم تساءلت مع نفسي ما الذي سأفعله إن صرعني الرجل الذي خلفي بطلقة في رأسي؟ عندها سيكون الامر قد انتهىٰ، والى الابد، وعلى حد سواء..

وبسرعة البرق خطفت الخنجر من مكانه وأردت أن اطعنه.

عندها بدرت الصيحة من فمه بالقول: «انتظر يازميلي الصغير، اعتقد بأن عليّ مساعدتك»!

كان ذلك هو البحار الذي كسبهُ (آين أوكة) للعمل معنا. وعلى الرغم من ذلك فقد بقي الشك يساورني. اذ ربما يكون قد انقلب علينا في غضون المدة الماضية؟ وكيف كانت المعركة؟ وان كان هناك بعض من الذين كانوا سينقذوننا قد بقوا على قيد الحياة؟

وعند سماعه ذلك ضحك وقال: «هذا الامر أردت أنا الاجابة عليه، ولكن قل لي أولاً من أين أتيت أيها القرصان الصغير؟».

«من هناك»، قلتها مشيراً الى المخزن.

«من هناك؟ هذا لا يمكن أبداً. فان هذا المكان هو مخزن الخبز».

«صحيح. وعلى أية حال فانا لم انزل من فوق السارية، كما اني لست قرداً».

حك البحار شعر رأسه، ولم يعقل الامر الذي طرحه الشاب المغامر. ثم قام بالنظر الى أصابع قدمه ودمدم مع نفسه بالقول: «ربما يكون ذلك ممكناً على نحو ما»!

«وكيف هي الحال مع القتال، يابحار؟»

حينها نظر البحار اليَّ بغباء وكأني كنت الشيطان أمامه بلباس البشر، وكنت أفهم الحالة التي هو فيها. فالسمعة التي كان يتمتع بها الـ «ديمونيوس»، وتلك التسمية التي يطلقها علينا الاسبان، كانت تمتد عبر الكاريبي وخليج المكسيك لتصل الى المحيط الاطلسي. ومن شدّة اندهاشه فانه لم يتمكن من الاجابة على تساؤلي ذلك حتىٰ تلك اللحظة. ثم قال لي:

«هل تعلم بانك قد وصلت الى سطح السفينة.. ولكن ما هذا الجرح على رأسك؟».

«لا شيء، انس هذا. لقد ارتطمت بأحد الالواح. ولكن دعنا لا نذكر هذا الامر الآن، اذ لا وقت لذلك»!

«عندك حق، وضع السكين جانباً، ولنستمر بالعمل معاً»!

ولم يبق أمامنا الكثير من العمل. وفي غضون دقائق قليلة تمكنا من إبعاد قفل باب القمرة. وقد طار القفل بقوة من مكانه اثر الضربة الاخيرة حتى كاد أن يضرب وجهينا.

عندها انبعثت صيحات!

«يعيش فرانسوا لينورماند!»

«بوركت أيها الاخ الصغير!»

ثم تزاحم زملاؤنا متجهين صوب السلالم. ساريل قام باحتضاني، وآيزن آرم مرّ بقبضته العملاقة بشعر رأسي. حينها دمدمت وقلت مع نفسي، ماذا كنتم ستقولون لو رأيتم وجهي قبل قليل. وكان جلد رأسي قد تورم جراء ارتطامي بذلك اللوح الخشبي بجبيني، وكان ذلك مبعث آلام كثيرة. وعلى الرغم من كل ذلك ارتسمت على شفتيّ ابتسامة فرح خفيفة. ثم قلت: «نحمد الله على اني لم أكن محتاجاً الى تعزيزات، والا..».

آيزن آرم قاطعني بالقول: «ولكنَّ هناك اثنين من زملائنا خرجا خلفك من ذلك الثقب!».

«اذن فهما مختبئان الآن بين اكياس الطحين في المخزن!».

آيزن آرم هز رأسه، لأنه لم يفهم شيئاً مما قلته.

ولكن لم يكن هنالك مزيد من الوقت للقيام بايضاحات مطولة.

قام البحار بسحب آين أوگة، وجان جوبير والبعض من زملائنا الى مكان آخر. سنجد فيه جميعاً أسلحة لنا حسب

قوله. وبامكانكم تقدير الحالة المحرجة التي نحن فيها.

بعدها كان ساريل أمامي ثانية فسألته: «هل تابعت المعركة من الثقب الذي عملناه؟»

ورد ساريل على سؤالي قائلاً: «ان العرق بدأ يتصبب منهم بغزارة، وصدقني فقد كانت الحالة هكذا!».

«والخسائر؟».

«هذا ما أردت اخبارك به، فقد أُغرق أحد القوارب، لكن البحارة استطاعوا النجاة واللجوء الى القوارب الاخرىٰ.. ونحن عند البوابة الخلفية لم نستطع تقديم أية مساعدة اليهم!».

«حسن ياساريل، هذا الامر سنتحدث به لاحقاً!»

«اعتقد باننا وصلنا في الوقت المناسب من أجل قلب الصفحة. وقد حاول اولئك البحارة التسلل الى السطح عبر مؤخرة السفينة، لكنهم غرقوا في الماء. واعتقد أنه حصلت معركة بينهم وبين البحارة في السفينة، وعلى أية حال فقد سمعنا صيحاتهم هنا».

كنا محشورين في أحد الممرات، ولم نتقدم نحو الامام من تلك النقطة. وقد اشير الينا من المواقع الامامية ان نلتزم الصمت. كانت الابواب تفتح ثم تغلق ثانية. وعندما كانت تتم مناقلة السلاح، كانت أصوات الهمس بالرضا

وأخيراً فقد وصل الى يدي أحد المسدسات الحقيقية! وللاسف فانـه لم يكن محشواً. لـذلك قمت بـوضعه في حزامي، وأبقيت الخنجر في يدي.



أخواننا القراصنة:

جان جوبير صاح قـائلاً: «هيـا، يازمـلاء، من أجل تورتوكا ومن أجل الحرية!» ثم تدفقنا عـلى السطح من المنطقة القريبة من الساريـة الكبيرة. وكـانت المعركـة محتدمة هنا وهناك وبلا تغير. كمـا ان منقذينـا قامـوا باستعمال الكلاليب من قواربهم، التي التصقت باماكنها

حينهـا صحت بأعـلىٰ صـوتي مثلمـا كـان يصيـح گلاتزكويف سابقاً: «قاتلوا بكل ما يتيسر لكم من وسائل، هيا الى القتال ضد بحارة صاحبة الجلالة والذين سيلقون الموت حتماً على اياديكم!».

وبعد قليل من الثواني بدأ قتالنا معهم أيضـاً. قتال رائع! وكنا فرحين في دخولنا لحلبة القتال ثانية!

آيزن آرم قام بأخذ احـدىٰ كرات المـدافع، وبـرميـة واحدة القاها على مجموعة من البحارة. وشيئاً من هذا القبيل لم اكن قد شاهدته من قبل. وفجأة سمعته يصيح: «محررونا هم هناك! گوليف، فلاوته، والملاك المقدس..».

في تلك الاثناء صحت بأعلىٰ صوتي مستذكراً زميلي: «گلاتزكويف»! وفي خضم تلك النشوة كنت أضرب يميناً وشمالاً، لا أميز بين الاحياء والامـوات. نعم، لقد حضر اولئك المنقذون جميعاً. فقد ظهـروا أمامي من البحـر، جميع اولئك القـراصنة الكبـار الذين كـانوا أحـراراً: فلاوته، گوليف، والى جانبه الذي لا يمـوت، والشيطان الاحمـر، والجرذ.. لقـد قدمـوا منطلقـين من زوارقهم المضحكة، اولئك المحتالون القـدماء. وشيـاطين البحـر

هؤلاء كانوا يستخدمون كـل السفن التي بامكـان المرء تصورها، وحسب العادة فان عيونهم كانت تتّقد بالشوق الى الكنوز الخرافية، والحلي المتلألئة، واللؤلؤ، والاحجار الكريمة، والصناديق المملوءة بالذهب، والمواد الثمينة، واليوم لم يكن الامر يتعلق بالثروات، أو الطمع، وانما بقوة أعظم كثيراً. تلك هي الصداقة! وكانت أمامنا الآن عقبة يتوجب علينا التغلب عليها، اذ كانت هناك مجموعة من المدافع مصوّبة نحونا، وفتيلها يشتعل وقذائفها مهيأة.

وأنا متأكد بأن المعركة على سفينة (أنجليز) كانت تدور لصالح القراصنة، وكانوا يستحقونها فعلاً! وذلك ليس بسبب كوني من بينهم، وأقوم بنقل أخبارهم، وانما بسبب عدم مشاهدتي جرأة وشجاعة مثل هذه من قبل.

«انبطاح»، صاح آين أوگة بعلو صوته. ومثل السمك الجائع الذي ينطلق كالسهم نحو الطُعمْ، ألقينا بأنفسنا على الارض، وألصقنا وجوهنا بخشب الأرض والبطون بالالواح السميكة. وبعد ثوان قليلة صفرت الاطلاقـات فـوقنا وبـآذاننـا. والصلبـة قطفت رؤوس عشرين من الرجال، ونصفهم من القراصنة.

جان جوبير صاح: «الى السلاح، ياأصدقاء!».

«علينا ان نحصد هؤلاء الخادعين» قـالها عصفـور

الشؤم وسبقه شعر لحيته الذي كان يتطاير في الهواء. ثم رأيت (ايفز) وهو يلقي بثلاثة من البحارة في البحر. ثم بدأنا بالهجوم ونحن نرتعد من الغضب والحنق. ولم تكن لدينا ذخيرة ولا وقت للبحث عن الذخيرة عند القتلى.

ولم يبق أمامنا غير الاسلحة العارية تلتمع في أيدينا. وكان آين أوگة يتبارز مع أحد الخصوم وكأنه يقوم بلعبة أطفال، وانا انتقيت أحد السيوف. بعدها توجهنا نحو السطح العلوي للسفينة لدعم منقذينا. كان قبطان (آنجليز) ينادي بالاوامر بأعلى صوته. وكان يبدو كالمجنون وهو يقفز بتنورته الحمراء لحث جنوده على القتال. آيزن آرم لاحظ استحالة وصولنا الى فوق عبر الطريق الذي نسلكه، لذلك أرشدنا الى طريق آخر أفضل واكثر سلامة.. وكانت تلك فكرة جيدة، وأشرت الى ساريل. تركنا المجموعة واختفينا بين الاشرعة. هذا الامر لم نكن لنندم عليه، إذ أن مجموعتنا ومحررينا لم يحرزوا شبراً واحداً في تقدمهم وهم يقاتلون مدة عشر دقائق بأسلحتهم. وعلى العكس من زملائنا فقد احرزنا تقدماً في سيرنا، ولم تكن أشرعة السفينة قد انزلت بعد، ربما بسبب عدم وجود مدافع على سفن القراصنة الامر الذي قدم خدمة لنا، إذ لم تبق ثمة موانع في طريقنا.

صرخت: «انتبه ياساريل! سوف نقفز الى جسر القيادة، الى السادة الضباط»

قبل قليل كنت اقبع في المخزن مع الجرذان، أما الآن فأنا انطلق حراً طليقاً مع صديقي ساريل كنورس البحر، ونقفز من سارية الى اخرى. وبقفزة رائعة طرت فيها متدلياً بحبل سارية لاقطع بيدي اليمين والسيف فيها سارية بحبالها لتغطي جسر الضباط ذلك. وهذا الامر ولّد إرباكاً وفوضى لديهم!

انني لن انسى كيف قام ساريل باطلاق صيحة وهو الى جانبي قبل أن ننزل بقفزات رشيقة الى الاسفل. أما زملاؤنا فانهم قطعوا الشوط الطويل ليصلوا الى هدفهم أيضاً قرب السلم. وكان آيزن آرم والاخرون سيصلوننا في غضون ثوان قليلة. وحتى ذلك الحين كان علينا أن نقوم بالقتال وحدنا مع الضباط.. اي اثنان ضد ستة! ولم يكن لدي سيف راق من الحديد الجيّد بل كان سيفاً اعتيادياً.. ولكن هذا السيف قام بانقاذ حياتي، لأنه بدلاً من أن يقوم باللمعان المجرد، قمت بتحريكه يمنة وشمالا وبضربات موجعة قاتلة مما أدى الى إرباك الضباط. ثم قمنا بالاندفاع نحو الامام.

«اعطني مسدسك!» صاح ساريل.

«انه ليس محشواً»، همست باذنه.

«لا عليك، فانهم لا يعرفون ذلك!».

ثم تبدل موضع السلاح من حزامي الى يده. بعدها وجه المسدّس الى حملة السيوف آمراً إياهم: «القوا بأسلحتكم! هيا استسلموا لتنجوا بجلودكم!».

«الموت أفضل لنا من ذلك!» قالها أحد الضباط الشقر ثم قفز نحونا وهو يلوح بسيفه.

ساريل أراد أن يحميني بجسده، لكنه عثر بأحد الحبال الموترة على الارض وسقط لابقىٰ وحيداً. وقد بدا الامر في اللحظة الاولىٰ وكأن كل شيء قد انتهىٰ. وكان من الصعب عليَّ مجابهة ذلك الضابط المتدرّب على السلاح جيداً، لاسيما وان السيف الحديدي الثقيل كان يهد قواي ويعطل ذراعي. ولمحاسن الصدف فان ساريل وقف على رجليه أخيراً. وقد نظر عبر رؤوس الضباط وقال مشيراً الى القائد:

«يازميلي ان القائد قد مات!».

لم أفهمه بنحو صحيح، ولكن الضباط فعلوا. وكرجل واحد قاموا بالاستدارة واعطونا ظهورهم لمعرفة حالة قبطانهم. وحيلة ساريل فعلت جدواها. وتم انقاذنا. ولم نكد نسير ثلاث خطوات الا وظهر قربنا آيزن آرم، وايڤز،

وآين أوگة والاخرون. ثم ارتفع ضجيج عال أمامنا. مقابل ذلك أطلقنا صيحات هتاف قوية من جانبنا، فجنود البحرية القوا أسلحتهم واستسلموا! والفرقاطة أصبحت ملكنا الآن!

من جانبي فقد هلكت جراء التعب. وضعت السيف على الارض ومسحت جبيني. والذي رأيته في كف يدي كان خليطاً من العرق المتصبّب والدماء. في تلك اللحظة لم اكترث بالامر. ماعدا ذلك فان طبيب السفينة مع حقيبة أجهزته الطبية، ربما كان عنده ومنذ مدة ما هو أهم من ذلك. ثم شعرت بغمامة امام عيني، وشاهدت رجالنا وهم يحتلون ظهر السفينة وكأني انظر من خلال الضباب. وقد شعرت بخوار هائل بقواي بحيث بات لزاماً عليَّ الاتكاء على مسند لاثبت نفسي. وكانت افكاري تختلط بشجاعتهم واقدامهم. بعدها توقف اطلاق النار. وبنهم واضح للغنائم اندفع القراصنة كقطيع من الكلاب السائبة صوب الكابينات والطابق الاوسط. ثم ابتدأ النهب كل على هواه! ولم تصلح الفرقاطة لهذا الامر، اذ انها لم تكن سوىٰ سفينة حربية، ولم تكن على ظهرها حمولة ثمينة. ثم انني لم اكن مهتماً بالموضوع. وفجأة شعرت بموجة من الألم تعصف برأسي. عندها تذكرت بأني كنت قد جرحت

في مخزن الطحين. ثم تلك الدماء في يدي.. واردت حينها تحسس الجرح مرة ثانية، لكن يدي التي كانت تعبة من السيف سقطت من شدة التعب. ثم فقدت وعيي. لذلك فقد امتـزجت الألوان والاصـوات المختلفة امـام عيني وفي اذني.

وعندما استعدت وعيي، أبصرت أولاً وجه ذلك الملازم الشاب الاشقر!

وهذا الامر أثار غضبي، بحيث اني لم أرغب الابصار اكثـر.. اذن فقد بقينـا بايـدي الملكيين، بعـدما قـاموا باستعادة الفوز بقيادة السفينة التي غنمناهـا. والنصر الـذي احرزنـاه لم تكتب له الحيـاة الا لوقت ضئيـل. وتملكتني موجة من الضيق.. ثم سمعت خليطاً من اللغو غير المتجانس، وضحك زملائي. على اثر ذلك قمت بفتح عيني وانتصبت بقامتي.

الملازم قال لي: «يجب عليك أن تتصرف بهدوء، فأنت جريح!».

وقام بتجفيف الدماء وتطهيرها بوساطة احدى قطع القمـاش الرقيقـة، إذ كانت الـدماء تقطـر من صدغي باستمرار. كان هذا الضابط الشاب قد ربط حزامه حول رأسه وبدا وكأنه أحد القراصنة.. وتوجب عليّ ان اضحك

من منظره. وكان هذا الشاب يقاتل بكل شجاعة، وربما كان سيكون من خيرة مقاتلينا لو انضم الى صفوفنا، ان كانت لديه الرغبة للتخلي عن خدمته الملكية والبقاء بـين صفوفنا.. هذه التصورات والافكار نالت استحساني.

وكأنه كان قد حزر ما يجول في خاطري من أفكار فقال لي بكل ثقة بعد قرار وطيد: «أنا أسيرك، وهذا هو سيفي».

قمت اثرها بدفعه الى جانب وأنا تعب، وشعرت بحزن عميق يخامرني، لم يكن أساسه متعلقاً بالتعب. وكانت هناك هوة عميقة تفصلنا نحن الاثنين وللابد. وكان الامر يتطلب لمحة صغيرة لتزيل الحاجز البسيط بيننا ولنصبح أصدقاء اعزاء وفي المكان نفسه، بعدها حضر (آين أوگة) وهو يضغط بالعلم الملكي على صدره خـارجاً من قمـرة القبطان. ثم القى نظرة على السارية وصاح على ساريل قائلا:

«ثبت هـذا العلم هنا يـاساريـل»، مشيراً الى أحـد الاعمدة الواطئة! وتم فوراً جلب العلم الفرنسي الابيض، كذلك فان قبطان (أنجليـز) تم جلبه من قبـل اثنين من القراصنة الذين أمسكوا به جيداً.

«ياعصابة! ليس لديكم الحق في انزال العلم هكذا، والعلم الملوّن يجب أن لا يكون إلّا مرفوعاً عندما يكون الملك على

ظهر السفينة».

هذا صحيح. وعلى الرغم من ذلك فاننا كنا بصدد رفع تلك الراية الملكية. وقام ساريل بتثبيتها بذلك العمود الصغير. ورفرف العلم بألوانه وأشكاله. وقائد سفينة (آنجليز) ضرب الارض بقدميه بشدة.

«ان هذه إهانة لصاحب الجلالة! ان الملك..».

عصفور الشؤم قال له مقاطعا: «عندما يتعلق الامر بذلك، فارجو أن تكون مطمئنا، اذ أن كل واحد فينا هو ملك بحد ذاته. ونحن ملوك القراصنة».

وكانت وجوه ضباط السفينة مكفهرّة. وقام قبطان السفينة بالقاء نظرة لوم عليهم. وفجأة ظهر انه اتخذ قراراً. ثم صاح بصوت يبعث على الخوف، ولم أره أنا بتلك الحالة من قبل، وصاح: «ياقراصنة يالصوص، سوف ترون أن أحد الضباط الملكيين يعرف كيف يموت. ارجو أن يسلّمني أحدكم مسدسه!».

آيزن آرم قام باعطائه السلاح قائلا: «خذ ياكابتن، ان هذا مسدس محشو!».

الضابط وجه المسدس ناحية صدغه ثم اطلق النار على نفسه، ومالبث ان سقط على الارض قتيلاً بتنورته الحمراء الجميلة.

ثم ساد سكون غير اعتيادي علي سطح السفينة. ولم يسمع شيء هناك اطلاقاً مثلما هي الحال بعد انفجار كبير، أو قبل حصول كارثة كبيرة، ثم ذهبت الى جانب القتيل. وقرب يده كان أحد المسدسات التى أخذها مني ضابط البحرية عندما صعدنا على ظهر هذه السفينة.

والمسدس الآخر كان بيد آيزن آرم. لذا فقد أخذت المسدسين من هناك لي فوراً هذه المسدسات كانت هدية لي من گلاتز كوپف، وكنت احبها كثيراً جداً!

«لقد كان هذا القبطان رجلاً حقيقياً!» أوضح آيزن آرم بقوله بدلاً من كلمة تأبين. وأضاف: «لم يكن لديه ما هو أعز من شرفه!».

«نعم»، قالها ساريل مؤيداً أيضاً.

اثر ذلك قمنا بربط احدى الكرات الحديدية بقدم الضابط الآمر وقمنا بتأبين الشرف عندما أغرق في الامواج المتجمدة للمحيط الاطلسي.

بعدها أمر (فلاوته) بانزال العلم ليبلغ سطح الماء. كانت تلك هي العادة الدارجة عندما يموت قبطان سفينة ما.

ثم بقيت أشرعة سفينة (آنجليز) بشكل غير نظامي مدة نصف ساعة كدليل على الحزن. وعلى مكان ليس ببعيد مني رأيت الملازم الشاب وهو يجهش بالبكاء. بعد ذلك علمت أن ذلك القائد كان يخدم تحت إمرة والده..



العاصفة:

«ارفعوا جميع الأشرعة، بما فيها الصغيرة!».

وكان الرجال يصيحون باستمرار «عـاش.. عاش»! ويلقون بقبعاتهم في الهواء. ومثل القرود قاموا بالقفز فيما بين الحبال منشرحين بخصوص المغامرة القـادمة لهم.

وكان لبريق ولمعان الذهب أثر جذّاب في أعينهم جميعاً. ثم غادرنا سفينة (آنجليز). والهواء أصبح مناسباً بالنسبة لنا نحن القراصنة. وكان القارب ينساب بشكل هادىء فوق الماء.

قال ايفز: «اللعنة على الشيطان. لقد أشرقت الشمس ثانية»!

فقـال ساريـل: «لقد تم انقـاذنا» وأضـاف: «تحيا الحياة!» ثم بدأ ساريل يحلم بالحياة على جزيرته الاصلية ويستعيد ذكريات اوقات الراحة والانبساط. وعلى ظهر السفينة كانت المعنويات مرتفعة جـداً. وكل واحـد من الافراد ترك العنان لخياله لكي يسبح بالمستقبل، فضلاً عن اعـداده للخطط الجنونيـة - وبعد الانتصـار رحنا نبحث مصير الاسرى أما (فلاوته)، فانه حاول التحدث مع جنود البحرية وضباطهم على سفينة (آنجليز)، قائلاً:

«ان الذي يتخلى عن الثراء والشرف بامكانه الانضمام الينا. والحرية هي حليف لكم بالتأكيد!».

كانت نظراته تتفحص كل واحد منهم بعناية. وكانوا خشنين مثلنا تماماً، والاكثر من ذلك انهم منضبطون. لقد قام البحر بصقلهم منذ نعومة اظفارهم. وكانوا على علم بتفاصيل الحياة على ظهـر السفينة: مثـل شد الحبـال

وصناعتها، والحروب، وكيفية نشر الاشرعة واسدالها،
وكيفية القيام بتوجيه السفينة عند هبوب الرياح الجيدة
والسيئة، اضافة الى القيام بالقاء المرساة أو رفعها. ولهذه
الاسباب فانهم كانوا جنوداً جيدين، يقظين، نشيطين
وشجعان وصلبين. والكثير من مساعيهم كانت متطوّرة
بحيث يكون لديهم القوة للسيطرة على الامور أثناء الجو
الجيد أو السيء. وفي وقتنا يعد هذا النموذج من الرجال في
فرنسا مطيعاً وذا انضباط صارم وتعوّد على الطاعة
العمياء. فضلاً عن ذلك فانهم لا يشكلون أي عبءٍ على
الخزانة الملكية. والحصص الصغيرة الخاصة، التي
كانوا يحصلون عليها من البحر، كانت تتألف من جزء
قليل من التبغ والمشروبات والثوم.

وبالذات لسبب كونهم متعودين على الانضباط
الصارم، فان (١٠) منهم فقط كان يمكن ضمهم الى
السوق. والبحار الذي كسبه (آين أوگه) الى جانبه انضم
الينا. وقد قررنا انزال البقية منهم الى البر عند وصولنا
لساحل سانتو دومنيكو. وبمساعدة المحافظ سيحصل
هؤلاء وبلا تأخير على سفينة ملكية اخرىٰ.

كنا نجلس باديء الامر محشورين في القارب الصغير.
أما من جانب فلاوته، وگوليف، والشيطان الاحمر، فكانوا

قد بقوا مع بعض أتباعهم علىٰ ظهر سفينة (آنجليز)،
وكانوا يشكلون مع جنود البحرية حشداً كبيراً من
الناس. أما نحن البقية فقد وزعنا انفسنا على القوارب
الثلاثة التي أتت لنجدتنا. وقد صعدت الى قارب (الذي لا
يموت) معاً مع ساريل وايڤز، وآيزن آرم، (وآين أوگه)
وعصفور الشؤم. أما جان جوبير فانه اختار قارباً آخر
ليصعد فيه مع الكثير من رجاله.

«أبحروا أسرع، يازملاء!».

وبذلك الهواء الجيد أردنا العودة الى البحر الكاريبي.
ولم تصادفنا متاعب في رحلة العودة تلك. وان صادفتنا
احدىٰ السفن الفرنسية فسوف يكون من السهل
التخلص منها، لأن سفينتنا كانت تبدو مثل العروس
الملكية. كنت أجلس في أحد القوارب في المؤخرة واستنشق
عبير الهواء بعمق. حينها شعرت بأني اقوىٰ من السابق.
وعادت اليّ خيالاتي السابقة. وخلفي كان الاصدقاء
يغرّدون بأغانيهم العذبة الشجية، اذ وجدوا حالة
السعادة وعدم القلق التي كانت تلفهم لفاً. ولم يكن هناك
شيء يفرقنا. كنا نتذوق طعم الـ رية مثل طيور البحر
الكبيرة، التي تقوم بالتقاط أنفاسها والاستراحة عند
الانسان أحياناً، عندما تكون تعبة جداً. لم يكن بامكان

احد بعد تدجين أحد هذه الطيور البحرية. بعدها أتى (ساريل) وجلس الى جانبي وقال: «ان كنا سنشرب كثيراً من الخمر، فالاجدر بنا الانتقال الى سفينة القراصنة الاولى. ثم استرسل ضاحكاً: «آه، كم أنا محتاج لاستنشاق تبغ صافٍ عبق؟».

«لا تتعجل الامور، ياساريل! إذ يجب علينا أولاً معرفة موقف محافظ بورت دي پاي. ثم.. مَن يعرف ماذا يحصل في ذلك الميناء. أوليس من الممكن ان تنتظرنا الفرقاطات الملكية هناك؟».

قال: «ليس بامكاني تصور ماذا يمنعنا من أخذ سفينة مثل (أنجليز). وعندما نكون قد سرقنا جميع سفن الملك، يجب عليه حينئذ منح كل واحد منا امتياز (ادميرال)!

قلت: «وليس أكثر؟» كان عليّ حينها أن أضحك كثيراً. ففي فرساي ستكفهر وجوههم ان كانوا سينضمون الينا.

قال: «صدقني، باننا سنسيطر اليوم أو غداً على الجميع، وسوف لا نعرف الى أي من السفن نوجه مدافعنا، هل نوجهها صوب السفن الانكليزية، أم الهولندية أم البرتغالية أم الاسبانية؟».

قلت: «هل انك خائف؟».

قال: «بالطبع كلا! فقط، اني تركت بعض النقود عند

رهبان جزيرة السلاحف، وما عدا كل ذلك فاني راغب برؤية ايزابيلا!».

أبعد ساريل نظره عني، ونظر الى الامواج المزبدة، وأخرج لسانه ثم قال لي ضاحكاً: «عندما تكون النقود والنساء في تفكير السيد، فانه لن يكون من اتباع القراصنة. لكني احذرك! فالسلاسل الموجودة على ظهر (أنجليز) لم تكن شيئاً مقابل القيود التي أنت مكبل فيها حالياً!».

ولهذا السبب كنت غاضباً ولم اجب بشيء. في ذلك الوقت لم أعرف تماماً مدى جدّية الامر.

ولمدة يومين كنا نستعمل المواد الغذائية التي كانت على سفينة أنجليز، من تلك المخصصة للضباط. وكان ذلك أخيراً بمنزلة تغيير في روتين الحياة اليومي الذي رسمه لنا جنود البحرية على ظهر سفينتهم في أثناء أسرنا عليها. وكان عصفور الشؤم قد حصل على التبغ.

أما آين أوگه وآيزن آرم فانهما كانا يغطان بنوم عميق طوال الوقت. وانا قمت بتنظيف مسدسيَّ الاثنين، أو القيام بتلميع سيفي الفاخر وبهمة عالية، علماً بأني حصلت عليه في اثناء نهب سفينة (أنجليز).

صديقنا (الذي لا يموت) صاح قائلاً: «علينا أن ننشر

الشراع هذا هنا، لأنه تمزق جراء اصابته بطلقة مدفع».
فتجمع حولنا الرجال وعملوا بهمة عالية، ومثلما أراد الذي لا يموت. هكذا كان يفعل صديقي گلاتزكوپف حينها لدى سفرتنا الاولى، إذ كان يشغل الجميع، لطرد الملل من النفوس.

«كذلك فان عليكم أن تشدوا الحبال! إذ من الممكن أن تحصل عاصفة غير متوقعة في أية لحظة! لذلك يجب أن تقاوم الأشرعة».

وبحماس بالغ، والذي حفر أخاديد جديدة كوتها أشعة الشمس، قام حتى القراصنة القدماء بترقيع الاشرعة بوساطة قطع جلدية وإبر. زملاء آخرون بأيادي ماهرة قاموا بتصليح الحبال قطعة قطعة. وقمت أنا بتسلّق السارية معهم. كانت الحبال تتحرك حولنا ويعصف بها الهواء لتعزف مثل القيثارة. أما نَفَسُ البحر الذي نفخ الاشرعة فقد نفخ في آذاننا ايضاً اغنية عذبة.

صاح ساريل في أذني: «هنا فقط يشعر المرء بالحرية!»

«نعم»، كانت اجابتي.. «وهنا يمكن للمرء أن يحلم. ولكن عندما تنام وأنت على هذا الموقع، فان عظامك تتكسر جميعا في جسدك!»

فاقترح ساريل: «حاول ان تفعل ذلك ولو مرة واحدة»،

لماذا لم تنفتح يداي من تلقائها؟ ولماذا لم أُسقط نفسي، أو لماذا لم ادفع ساريل الى القاع المهلك لتبدو تلك الحادثة قضاءاً وقدراً؟ ليس بامكاني قول ذلك.. وربما لا يعرف أحد الجواب. ولاحقاً سوف اندم على هذا العمل. وكان الكثير من المشاكل التي حصلت لي ستوَّفر لو كنت قد قمت بذلك.

أما الآن فان بامكان المرء أن يحيا. فالبحر كان هادئا، والرياح حملت ضحكاتنا الى عموم أرجاء السماء.. والبحر لا يعرف الصدى.

وبعد مدة شاهدت كيفية اختراق زعنفة الحوت لسطح الماء الصقيل. حينها قلت لعصفور الشؤم: «يبدو أن البحر الهادىء يلائم هذا الحوت!».

فقال: «ربما، ولكن هذا الهدوء يبدو لي طويلاً اكثر من المرجو».

قلت: «نعم ومنذ حوالي أربع ساعات لم تهب الريح ابداً».

قال: «هذه علامة للجو السيء. ولا يمكن للمرء أن يثق بالبحر».

البحر.. كان هو الذي نحسب له الف حساب. البحر هو نفسه الذي نقيس بوساطته الامور ومسارها. البحر

دائماً يخبيء عاصفة، أو موجاً عارماً او سارقاً مجرماً. وكلما تصوّرتَ انـك عارف بـالبحر وامـوره، تكون قـد أخطأت، فساعات البحر ليست متساوية!

في تلك اللحظة كان هنالك على أية حال صمت مطبق في البحر. كذلك فان القاربين الآخـرين وسفينة (آنجليـز) كانت على مسافة منا، وبدت وكأنها سـاكنة عـلى سطح البحر.

«ان استمر سكون البحر على هذه الحالة مدة أطول، فسوف يكون بامكاننا الذهاب بأحد القوارب الى سفينة آنجليز وجلب بعض قناني النبيذ من هناك. فماذا تقول ياكابتن؟».

«وستقوم أنت بالتحذيف؟».

«أنا لا أقول كلا أبداً!».

وان هبّت نسمة، هل يتوجب عليّ أن انتظر الى أن تعود؟ من دوني!».

الحياة على سطح السفينة اتخـذت وبسرعة صيغـاً ثابتة. واولئك الناس العارفون بشؤون الملاحة كان لديهم الكثير لعمله من حيث تحديد الاتجاهات وقيادة السفن واصدار القرارات، وأي الأشرعة يتوجب استخـدامها كذلك. أما الاخرون فانهم قاموا وبكل شـوق بممارسـة

أعمالهم الاعتيادية.

والآن، وعندما تحققنا من نيل حريتنا، فان العمل كان مصدر لذة كبيرة. وكان الـوقت يمضي ببطء على البحـر الساكن. بيد أن ذلك كان بمنزلة مدة استراحة قصيرة في مسار حياتنا القاسية التي كانت تخبيء لنا دائماً جهوداً مضنية ومخاطر اضافية.

وعلى قمة السارية بدأت راية الطقس بالتحرك بهدوء. الهواء دخل في حركة لابأس بها. وفوق قاربنا كانت هناك سخونة مشحونة بالرطوبة ورائحـة المطر. وبـين لحظة واخرى كانت تهب نسمة هنا وهناك لم تستطع الأشرعة اصطيادها والامتلاء بها! وقـد ارتطمت أمواج الهـواء بتراخٍ على هذا الشراع وذاك، مثلما تهتز ملابس الغسيل على الحبال.

«ها قد أتت الصفقة، وامامنا الكثير من العمل». قال ذلك عصفور الشؤم وهو في حالة تعلق متزايد.

كان الرجال يقفون على ظهر السفينة ويرقبون بأعينهم السماء والبحر، عندما ظهرت سحب سود في الافق.

أوضح آيزن آرم: «ستكون عندنـا أمطار كثـيرة عما قريب، وسوف تصلنا هذه الامطار حالا!».

القرصان الذي لا يموت صاح فوراً: «الى لف الشراع،

وانزاله وترتيبه». فحضر الرجال حالاً الى موضع العمل.

«أي حياة هذه التي نعيشها!» قالها ساريل بتنهد وأضاف: «على أية حال فعندما كنت اصطاد الثيران والخنازير السود..» بقية الجملة التي اكملها ذهبت مع لطمة الريح القوية التي هبت عليهم. امر القبطان بانزال الشراع الجانبي الصغير، ماعدا ذلك فان الاشرعة الصغيرة الاخرىٰ ثم انزالها وطيّها ومعها الشراع الكبير. وهكذا فقد أصبح بامكاننا الابصار على نحو افضل للامور التي كانت ستأتي الينا. كانت السماء قد امتلأت وبسرعة بالغيوم. والنسيم كان يجلب انتعاشاً خاص معهُ، الكابتن كان قد حسب حساب عاصفة كبيرة، الامر الذي كان لا يستبعد مع ذلك الحجم من الغيوم الملبَّدة.. بوساطة الرياح العاتية اقلعنا باتجاه الغرب وابتعدنا تدريجياً عن القوارب الاخرىٰ. كانت تلك القوارب قد قامت هي الاخرىٰ بانزال الجزء الكبيرمن أشرعتها أيضاً.

«اللعنة، فان البحر لا يلائمني!» قالها ايفز بامتعاض.

كانت سرعة الرياح تزداد باستمرار، وبدت وكأنها تفور من شدّة قوتها. قال آيزن آرم: «ان قاربنا لا يحتمل ولا يقاوم حتىٰ موجة واحدة، نأمل ان تهدأ حالة البحر وبسرعة!».

فسألته حينها: «أترى السماء هناك في الغرب .. انها سوداء وصفراء مثل لون الكبريت.» .. فقال عصفور الشوم:

«ماذا ..؟ بمركبة مثل هذه قمت انا بالدوران كذا مرة حول امريكا بشرف الكابتن! وعند رأس أحد الخلجان لم ينتابني الخوف أبداً يا اولاد عندما هبت عليّ عاصفة هنا وهناك.»

فقلت: «لا تصرخ هكذا، أيها القرصان العجوز! فانك تجفل اسماك البحر الصغيرة!» وعلى نحو فجائي اندلعت العاصفة. وفقدنا اثر ذلك السفن الاخرى من امام أعيننا تماماً. قامت الامواج العاصفة المخيفة برفعنا فوق سطح الماء تقريباً لتعيدنا حالاً ونرتطم على سطح البحر. والبحر الممتليء بالغضب والغليان قام بارسال الامواج العاتية، وتحت سماء مليئة بالغيوم السود الى قاربنا المسكين الذي بذل ما بوسعه من جهد لمقاومة ذلك الضغط الهائل من جراء العاصفة والامواج وما يتبعها.

«فليمسك الجميع الصارية بيد، ويعملون باليد الاخرى!»

القرصان الذي لا يموت انزل جميع الاشرعة

الاخرى ، التي كانت ما تزال مرفوعة .

وهاج البحر وماج ، وكانت أمواجه الثائرة ترتطم بنا يمنة وشمالاً . وبضجيج جهنمي كانت الامواج تتراكم احداها فوق الاخرى . وفجأة ضربت احدى الامواج الدعامة الخشبية لتسقط فوق سطح السفينة وتكسرها.. من جانبي قمت بالتسلّق فوق الصارية الرئيسية . وكانت الامواج والرياح تحدث صوتاً مدوياً جداً ، بحيث لم يكن بامكان المرء سماع اي شيء من الحديث الذي يدور. وكنت مبتلاً تماماً وتعباً جداً. وعلى الرغم من كل ذلك كانت تحدوني رغبة للضحك من قوة الامواج أمام عينيّ، والهواء يلف اذنيّ.. وقد شعرت بحرية تامة وكأنني الملك!

عندها صاح الكابتن: «انزلوا الشراع!».

وكان الرجال قد تهيأوا فوراً للقيام بتلك العملية الخطيرة، وكان يتوجب القيام بها باقصىٰ سرعة.. وقاموا بادىء الامر بتقطيع الشراع الى قطع صغيرة لكي لا تحدث اضراراً وهي تسقط من فوق السارية. لذا فقد اخذتها الرياح وهي تسقط لتبتلعها أمواج البحر الهائلة الى الابد.

أحد البحارة صاح قائلاً: «ياكابتن.. كابتن، لدينا ثغرات في مناطق كثيرة من السفينة لا تتحمل الامواج

المتلاطمة!».

عندها لم تنفع المقاومة. كذلك فانه لم يكن من المجدي استخدام أجهزة مساعدة لضخ الماء خارجاً. وحيث ان الساحل لم يكن ظاهراً للعيان، حيث كان بالامكان ربما الحصول على الحماية أو المساعدة، فقد أصبح لزاماً علينا ترك السفينة.

«الى قوارب النجاة، والله يحميكم»، صاح القرصان الذي لا يموت وهو يأمر الجميع.

ولم تكن هناك حالة من الذعر. وكان علينا القيام بجهد مضن لانزال قوارب النجاة الى الماء، الامر الذي لم يكن بالبساطة التي يمكن تصورها. واخيراً فقد صعدت الى أحد القوارب ومعي ساريل وأصدقائي الاخرين. كتفاي كانا قد تيبسا جراء التعب. وقبل أن التفت الى الوراء لرؤية أصدقائي الآخرين، تأكدت بأني لم اضع السيف والمسدسين الاثنين اللذين كانا معي.

اثر ذلك رفعت موجة هادئة قاربنا الذي تركناه عالياً في الهواء. ورأينا القارب معلقاً في الهواء ثواني معدودة تحمله أمواج الماء والزَبَد الذي أحدثته تلك الامواج. ثم سقط القارب الى السطح، وشُقّ من قبل احدىٰ الامواج الحادة واختفىٰ ليبتلعه البحر.



سفينة في الافق:

عصفور الشؤم صاح في خضم تلك الاحداث قائلاً: «تمسك بالمجذاف بقوة، يازميلي». وكانت أمواج البحـر ترتفع جداً بحيث ان أشرعة قاربنا القصـيرة لم يمسها الهواء.. وكانت تصلنا بين حين وحين ومن بين الامواج لفحة من الهواء. ولم نكن قد وصلنا الى سرعـة ملائمـة

تمكننا من تجنب الامواج العالية والاصطدام بها، ولهذا فان تلك اللطمات كانت خطرة جداً بالنسبة الينا. وكان علينا الالتصاق بحافة القارب بكل قوة. ولهذه الاسباب جميعاً فقد وصلنا الى حالة من الاعياء لا توصف وبوقت سريع.

آيزن آرم قام بتثبيت مسمار محور الدوران للمجذاف، وكان (ساريل) يجلس بقربي وهو مبتل مثلنا جميعاً، وقد دخل حالة من الصمت المطبق. لم تكن لديه معلومات كثيرة عن البحر الهائج ذلك.

وعلى الرغم من ذلك الجو السيء، كـان عليّ التفكـير بوضعنا جميعاً. وكانت مضايقتنا كبيرة، ولدينـا جميعاً السبب للاكتئاب. ولم نكد ننل حريتنا حتىٰ نالت منا هذه المصيبة. ربما تكون هذه آخر عاصفة نتعرض لها على ظهر هذا القارب الذي من المحتمل ان يغرق حتىٰ قبل أن تنتهي هذه العاصفة. السبب في ذلك هو الحمولة الكبيرة التي وضعناها فوقه. والشراع الصغير مع الشراع المساعد له ربما لن يقاوما ذلك الضغط عليهما. ثم بعدها..

قال ايڤز فجأة:

«في الغرب تنقشع الغيوم، يارجال، وانظروا الى الحظ الملعون الذي يحالفنا!»

لم يكن هناك الكثير لرؤيته مما قاله (ايفز)، لكن الامر كان مؤكداً. فالرياح قامت باجلاء الافق المترنح أمامنا شيئاً فشيئاً، غير ان الامواج كانت ترتفع وباستمرار. وكانت موجة واحدة منها فقط كافية لمحو كل آمالنا.

أمسك آيزن آرم بالمجذاف بقوة، مما برّز عضلاته، ووجهه تقلص أيضاً اثر ذلك.. واستمرت الحال هكذا طوال المساء والليل.

آين أوكه (الاعور) سأل: «هل بامكانكم رؤية الاخرين؟». فأجبته: «كلا» وأضفت: «ان القاربين الآخرين ليسا في منظورنا منذ اكثر من ساعة. وقد دفعا نحو الشمال».

قامت الرياح بملء شراعنا ودفع القارب طوال الليل. وكان يرافق ذلك ارتطامات قوية، والتي كادت أن تحطم القارب. كنا خائري القوى اثر البرودة. بعدها بزغ الفجر. وفجأة سكنت الريح، لتهب من جانب آخر ملاءمة لنا.

فقال عصفور الشؤم اثر ذلك متنهداً: «اعتقد أننا نجونا!» وأضاف يقول: «إن لم تغير الريح اتجاهها، والروماتيزم الذي عندي لا يهيج، فسوف يحصل تبدل في الجو، ولا يمكن للحالة ان تصبح اسوأ من تلك التي مرت بنا».

وفي زهاء الساعة السادسة، أي بعد وقت قليل من سكون العاصفة تماماً، تغير الجو ليكون أجمل جو مشمس هناك.

البحر بدأ يتلألأ تحت انعكاس أشعة الشمس الساقطة عليه. أما الامواج الصغيرة التي عكست الضوء الساقط بآلاف القطع الصغيرة البراقة، فقد بدأت تؤلم أعيننا فوراً.

«ياللّعنة، ألم يفكر أحد منكم بجلب بعض الطعام معه؟» قالها عصفور الشؤم بغضب وهو يرعد.

«مواد تموين؟» لم يكن لدينا متسع من الوقت مثلك، يازميلنا العزيز!

«ان هذا ليس بالعذر. لو كان لدىٰ كل واحد في الاقل بقدر ما عندي هنا! لكنا نستطيع التحمل مدة ثمانية أيام في الاقل».

بعدها رد آين أوكة بالقول: «إذا بقينا نحتسي يومياً شوربة السمك بهذا المقدار، فسنضطر لشرب مياة المحيط كلها».

أخرج عصفور الشؤم قطعة من سمك القد من عبّه وهي مملّحة. وأظهر تلك القطعة لنا جميعاً برفع يديه فوق رأسه وهو يمسك بها.

آيزن آرم قال متسائلاً: «من منكم مازال يحتفظ ببعض الطعام عنده؟» عندها قمنا جميعا بالبحث في أمتعتنا. ثم وجدنا اربع قطع من الخبز الرطب. هذا كل ما وجدناه. لذلك قمنا بتعليق الخبز مع سمك القد على السارية لتجف.

قال عصفور الشؤم حاسماً الامر: «علينا ان نسيّر امورنا بهذا الطعام فقط لا غير! ولن يكون هناك تموين اكثر لنا، اذ أن أقرب الجزر تبعد عنا مدة اسابيع».

فسألته: «ولو سارت الرحلة على مايرام؟».

أجاب: «نعم برحلة جيدة جداً، يازميلي».

انتشرت الكآبة بيننا. ولم يبق لدينا خوف من المقصلة في تلك الفترة. وبدلاً من ذلك يهددنا الآن خطر الموت من الجوع والعطش تحت الشمس الاستوائية. وعلى أية حال علينا أن نسرع بالرحلة، لأن التحمل لا يمكن أن يستمر اكثر من عشرة ايام.

لكن لا بأس، فانه لم يزل هنالك أمل يلوح في الافق. ولم يكن بيننا من فقد ذراعه او عقله. فماذا نريد اكثر من ذلك؟

قال عصفور الشؤم: «إن أسوأ ما في الحالة هو العطش!».

وكان المعروف عن عصفور الشؤم انه من الشاربين الجيدين، وكان الكلام الذي يقوله موزوناً ويتحقق

بالتمام.

لقد انقضت ثلاثة ايام وساءت أحوال رجلين من رجالنا تماماً وكانت حاجتهما الى الماء ملحة، بيد أنه لم يكن بالامكان مساعدتهما وكنا جميعاً نجلس في قارب واحد.

كذلك فقد حصلت لي شقوق في شفتي. وكان الهواء المملوء بالملح يؤذي الشفاه باستمرار. وكنت في تلك الازمة مستعداً لأن أدفع عاماً كاملاً من سنوات عمري في المغامرة في البحر الكاريبي لقاء الحصول على دلو واحد من الماء فقط.

قال عصفور الشؤم مبدياً نصيحة: «اعدوا أنفسكم الليلة القادمة لكي تجمعوا الحبال، فذلك سيساعد في زيادة السرعة قليلاً!».

هززت رأسي في ذلك الوقت، ولكني ضحكت على الرغم من كل ذلك. من الممكن ان يُغلب قرصان البحر العجوز بسهولة. وبأنفه المعقوف، ويديه المتيبستين من الاملاح والقير، وفمه الخالي من الاسنان، والمستعد دائماً لنطق الاوامر والشتائم أو ترنيم اغنية بحر ما، بكل هذا فانه سيعمّر اكثر منا جميعا. وقد غمز لي بطارف عينه، الامر الذي ربما كان يعني أن علينا فهم الامور كاملة. وحسب

العادة هنا في هذه المنطقة فان الظلام كان يحل بسرعة. ولحد ذلك الوقت لم تلمح اية سفينة قريبة منـا، وقد لا نشاهد أية سفينة أيضاً الا بالمرور القريب من عندها!

سألني آيزن آرم: «أما زلت تفكر بجزيرة السلاحف، ياابن القراصنة؟».

«كلا، لقد اعتقدت بأن الليلة ستكون طويلة تماماً».

«من المحتمل. وأمل ان لا تكون الليلة الاخيرة يازميلي!».

نعم، آمل ذلك أيضاً! طابت ليلتك».

طابت ليلتك».

لم أتمكن من النوم في تلك الليلة.. وبدلا من ذلك حلمت وأنا في اليقظة بتلك السواحل البعيدة لجزر الكاريبي، بغاباتها الخضر الرائعة، وينابيعها ووديانها الخصبة، وأنهارها الغنية بالسمك والجداول.. كان العطش يعذبني، بحيث كنت سأعطي خمس سنوات من حياتي في مغامرات الكاريبي لقاء جرعة واحدة فقط من الماء!

وفي السماء كان الربع الاول من القمر قد ظهر. (إيفز) كان يغني بصوت واطيء. ثم توقف فجأة عن العناد وقال: «أتعرف اني لست من مقاطعة كويمير بل من (كيرڤالانك)؟» قالها لي كما يسر الصديق الى صديقه

وأضاف: «انني اخبرك بذلك، لأن الامر لم يعد له قيمة الآن؟ أو هل تعتقد بغير ذلك؟».

«مازلنا على قيد الحياة!».

«يبدو الامر وكأنه..»

حينها يصمت برهة ثم يضيف: «هل تعلم، في بيتنا في كيرڤالانك لم يكن هناك عمل ولا خبز. وكان يتوجب على المرء إما أن يدخل البحرية أو يرتحل الى العاصمة. ولو أنني ذهبت الى باريس، لكان علي أن اعيش من جمع فضلات المطاعم والمحلات التجارية».

«ولماذا لم تذهب الى باريس على الرغم من كل ذلك؟».

«كانت بعيدة جداً عني!».

يالمهازل القدر! فها هو يجوع هنا لا في باريس أو مدينة اخرى. لقد ارتحل الى الطرف الآخر من العالم ليصادف هناك ما كان دائماً يتجنبه في حياته.

وقد ابتدأ بالغناء ثانية.

كنت حينها اتدحرج على سطح أرضية القارب. واتضوّر جوعاً من تقلصات أمعائي التي أقضّت مضجعي. ولم أعد أحلم بتلك الجزر، بل فقط باكلة دسمة شهية ولو ضئيلة!

حينها كان كلاتر [illegible] الاصلع) يقول لي: «املأ بطنك

ياصغيري! فربما ستكون بحاجة الى خزين طعام مثل هذا في ضيق يصادفك!».

ومن شدة كَلَمي عدت بالذاكرة الى الوراء، الى آخر وجبة طعام تناولتها على جزيرة السلاحف الخضراء. وكان ذلك الحلم يغني جميع زملائي ليعوضهم عن الشقوق الخطرة التي طرأت على سطحها، والتي ربما ستؤدي بحياتنا جميعاً. وكأن الحلم كان قد حصل لي بالامس فقط، حيث عبقت رائحة الاسماك المشوية في مناخري، اضافة الى الانواع العديدة من الأصناف الاخرىٰ ومعها المقبلات التي تفوح منها رائحة التوابل الهندية الاصيلة. وكان مع الوجبة ايضاً مشويات من الدجاج والبط والطيور اللذيذة الشهية، قسم منها محشي والقسم الآخر مشوي وعلى أنواع مختلفة. وكانت المائدة تبدو وكأنها حزمة ورد ملونة تضم جميع الالوان جراء اختلاف ألوان الطعام والمشويات والمقبلات. أما خاتمة الطعام في المائدة، فكانت هناك انواع من الاجبان والسَلَطات المنوعة التي تزينها قطع الليمون والراتنج وأسماك الجيري الصغيرة الملونة، يضاف اليها المُحلَيات المنوعة والفواكه الطرية والمربيات..

إن طعاماً كهذا لا يستطيع التهامه! إلاّ قرصان». قالها

حينها كلاتزكوپف متنهداً.

«اشرب الان شيئاً ما لتستعيد البعض من قوتك ومزاجك».

نعم، وأنا اذكر كم شربنا في تلك الامسية وفي حانات عديدة. وكنا دائما نشرب نخب صداقتنا.

وكانت الايام التي تلت صعبة بحق.

وقد ساد البحر جوٌ من 'لسكون وتوقفت الريح، وانساب قاربنا بنحو هادىء تماماً فوق سطح الماء. توفي أحد المرضىٰ الاثنين من زملائنا على القارب، تبعه اثنان آخران في المدة نفسها. وبعد أن تقاسمنا أسلحتهم وحاجياتهم الاخرىٰ، قمنا برميهم من على ظهر قاربنا، الامر الذي زعزع سكون البحر الهادىء، وأرضىٰ طموح سمك القرش الذي كان يلاحقنا بشوق ومنذ ثلاثة ايام. لذلك فقد بقينا اثني عشر شخصاً على ظهر تلك السفينة..

قال ساريل برضىٰ:

«الآن سيكون بامكاني مد رجلي في الاقل،» واضاف:

«ولكن هذا يجب أن لا يعني، بأن..»».

لذلك فقد سكت من تلقاء نفسه عندما لاحظ ان الاخرين لم ينصتوا اليه. وعند الظهيرة لاحظت أنا بأني بدأت لا ارىٰ شيئاً. وجراء الماء المالح وأشعة الشمس

البـراقة المنعكسـة التي لا يمكن تحملها، والتي زادت الامواج من قوتها، فان عينيَّ كانتا قد التهبتا منـذ مدة طويلة وبدأتا تؤلماني بشدة.

نصحني آيزن آرم قائلاً: «عليك باستعمال اليـوريا، فبذلك تمكن الكثير من القراصنة من انقاذ أنفسهم من العمىٰ!».

بعدها أصبحت الآلام اكثر وأشد. وبعد مدة وجيزة بدأ رأسي بالدوران. وقد بدا لي الماء وكـأنه ليس بـذلك السكون والهدوء، وإنما كأنه يتحرك بكثرة. وكان الرجال منشغلين بأعمالهم في مقدمة القارب، ثم حـدث ارتطام قوي في الماء، ثم لاحظت اننا بقينا أحد عشر رجلاً فقط على ظهر المركب، إذ كـان قد سبق أن تـوفي رجل آخـر من زملائنا، بيد ان هذا الامر لم يمسني بشدة. حينها أردت الكلام والقول بانه يبدو لي ان المركب أصبح يسير أسرع من السابق، حيث أصبح الثقل الذي عليه أقل.. أقل.. ولكن لم أتمكن من النطق ولو بكلمة واحدة. وبقي فمي مفتـوحاً. ومجمـل كلماتي تـلاشت بما يشبـه الضباب الابيض.

وفي حُلمي كـانت دائما تتـردد الكلمـات: «انـزلـوا الاشرعة، انزلوا الاشرعة!» حينها شعرت بان احداً مـا

يهزّني ويرفع رأسي. آين أوكة!

«سيتم انقاذنا يـازميلي! اصـح، قم، فهناك سفينـة أمامنا!».

وقد تمكنت على الرغم من الآلام المبرحة التي كانت تلازمني ـ من النهوض بنفسي وفتح عيني. وتمكنت كذلك من النظر والرؤية! وكان (ساريل) ممـدداً عند قـدمي، وكان غائباً عن وعيه، والا فان زملاءنا كانوا سيوقظونه. وكان على ظهر السفينة مكان فسيح، لأن عددنا وصـل اخيراً الى ستة أشخاص فقط. كذلك فان البحار الذي كان يتبع اين أوكة مثل ظله، كان ضمن الأموات. وقد كانت قصة (بانكو اليسيا)، التي تحدث بها آين أوكـة لذلـك البحار لم تكن اكثر من اكذوبة، حسبما اعترف هو لي حقاً بذلك. لذا فان البحار لم يكن لديه شيء ليفقده، عندما ودع الحياة ليلحق بالاموات.

ومن كان قادراً من الرجال، جلس فوق السفينة لينظر الى السفينة الاخرى واعطاء اشارات الانقاذ اليها.

عصفور الشوم صاح: «انها ليست سفينة فرنسية، فهي صغيرة بالنسبة لمثيلاتها من السفن الفرنسية».

«كلا، ثم انها ليست سفينة قراصنة».

«ياللخسارة»!

«نعم، حقاً، وربما تكون سفينة تجارية».

عندها سيكون الحظ قد ابتسم لنا، وسوف نخبيء اسلحتنا، وحالما نصبح على مسافة قريبة منها، نبدأ بالهجوم عليها»! قال ذلك آيزن آرم.

فوافقه عصفور الشوم على مقترحه قائلاً: «صحيح جداً، يازميلي. فانا انظر لنفسي الان وكأنني في قمرة القيادة التي تخصص للقبطان وبمعدة مملوءة بالطعام، وأنا أقول...».

«السفينة اتجهت نحونا!» أعلن ذلك إيقز الذي تمكن من التسلّق الى أعلى صارية زورقنا الصغيرة.

«هل أنت متأكد!».

«نعم، وقد نجونا، وياللعنة! فقد كنت متأكداً بأن (ايقز) المقدس لن يتخلىٰ عنا. وانتم مدينون لي بشمعة كبيرة، يازملائي، اقدمها نذراً للقديسين. ويازملائي أنا أتذكر..»

قاطعه آين أوگه قائلاً: «ان قصتك لا تلائم مزاجنا».

لكن عصفور الشؤم لم يتخلَّ عن كلامه واسترسل قائلاً: «على الرغم من كل ذلك فان إيقز القديس قد ...».

«بحق عيني الوحيدة، يكفي ذلك!»

آيزن حسم الامر قائلا: «كفىٰ بذلك، لدينا ورقة واحدة

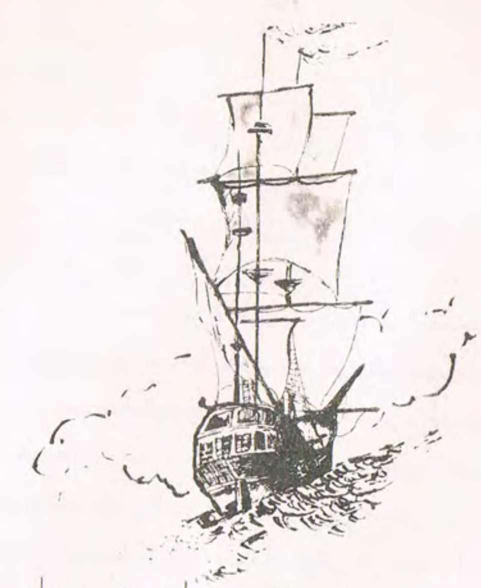
للعب فقط. فان كان أصحاب السفينة هم من الاسبان، فلن نخرج أحياء حتى لمؤخرة السفينة».

«صحيح»، أجبت أنا، وأضفت: «أنا أعرفهم. فان عرفوا من نكون نحن، فسوف يكون ذلك مصدر فرح غامر لهم في تصفيتنا واحداً واحداً».

«هذا ماسوف نراه بعد حين!» صاح عصفور الشؤم بفرح وأضاف: «هيا ياآيزن آرم (صاحب الذراع الحديدية)، لنتوجه مباشرة اليهم!» ثم دب النشاط في عروقنا مرة ثانية. أما ساريل فقد عاد الى وعيه ووافق على مجمل الامور في خضم ذلك الصياح والضوضاء. كما عادت الينا وبمرة واحدة الرغبة في المغامرة وحب الحياة. أما التعب والعطش والجوع الذي مزق معدتنا وحزّ بلعومنا، فقد تناسينا كل ذلك تماماً.. وكان في رؤوسنا شيء واحد: الا وهو الصياح. ومثل المجانين بدأنا بالصياح على السفينة الشراعية الصغيرة.

نعم، ولقد كانت سفينة ذات شراع واحد فقط.

وكان الامر الذي أثار إعجابنا جميعا هو لونها الابيض، وكيفية انسيابها فوق البحر بهدوء. وكانوا سيأخذوننا بأقرب وقت الى سطحها، ومعنا جميع أحلامنا وآمالنا.



على سطح سفينة كيلارني:

«مرحباً بكم على ظهر سفينة كيلّارني!» قالها الرجل بتهكم.

ولم أكد أضع قدمي على ظهر السفينة، حتى أخذوا مني مسدسيَّ الاثنين وسيفي. آيزن آرم حاول المقاومة اكثر، لكن البندقيتين الاثنتين المصوبتين نحوه أعادتا

صوابه اليه وبسرعة. وعدنا ثانية لنصبح سجناء من جديد. أما عصفور الشؤم، فانه قام بتفريق خصل لحيته بغضب. وكان ينفخ غضباً وباستمرار، فهو يريد تعليق القبطان على أعلى صارية في السفينة، وتفجير غرفة حفظ البارود.

وكانت رائحة هذه السفينة كريهة جداً. آيزن آرم لاحظ التجهم على وجهي.

«ليس لدينا أي حظ يازميلي، ولقد أصبحنا في سفينة عبيد من ليفربول!» ذلك ما قاله آيزن آرم.

اذن فنحن على سفينة انكليزية، وهذا الامر لم يكن ليخدم راحتنا، فالسفينة لم تكن مهيأة لموضوع كهذا ولتحسين ظروفنا. ولم نكن بحاجة لان ننتظر كثيراً على سطح السفينة.. جاء الكابتن نحونا من مؤخرة السفينة وبخطىً واسعة وسريعة. وكان خلفه رجل نحيف. كان يبدو شكله مدوراً ويلبس السواد. وكانت البنادق المنصوبة التي صوبها نحونا طاقم السفينة قد جعلتنا نقف في صف واحد منتظم.

أما القبطان فانه زرع نفسه امام مجموعتنا المولولة. وقال: «لقد كان لدي الحق، فانكم فرنسيون وقراصنة، وقد أردت أن اخطف منكم العديد وباستمرار. وهكذا هو

الامر، أوليس كذلك؟ نعم، نعم، صحيح!».

وتمتع القبطان بمشاهدة منظرنا ونحن نقف أمامه. فالحروب المستعرة بين فرنسا وانكلترا كانت بالنسبة لنا سبباً دائماً للقيام بهجوم على سفينة انكليزية. أما الآن فان احد الانكليز يريد أن ينتقم منا، ويطرد من نفوسنا الرغبة في القيام بهذا الامر.

«انكم لن تبقوا طويلاً على سفينة القبطان (باريت). سوف تقومون برحلة قصيرة لاسابيع قليلة ومجاناً. بعدها سأقوم ببيعكم كعبيد في جامايكا، مع عبيدي السود. ربما سآخذكم الى كارولينا او لوزيانا». وانفجر بالضحك، وعمل رجاله مثله تماماً. بعدها صاح: «هاوكنز، بورگة، ساندوڤال، ستيل، باستيت، هاردنغ وسيفورت! هيا اربطوا هؤلاء الاشقياء بالسلاسل!».

بدت لي الامور وكأنها ليست حقيقية، ولكن بعد دقائق قليلة جعلتني اثقال القيود أشعر بالواقع كما هو، فأنا لست في حلم. وتوجّب عليَّ أن أرى (جامايكا) وعاصمتها پورت رويال تحت ظروف حزينة تماماً. أي بالسلاسل التي نحن مكبلون بها، وفي اكبر سوق للنخاسة في العالم، وأن يتم بيعنا في اميركا، اما ايرادات البيع، فانها كانت ربما ستذهب الى خزانات شركة تجارة الهند الغربية. كان

ذلك هو الوجه الآخر للكاريبي. ولم تكن العاصمة بورت رويال مكونة من خليج على هيئة هلال فقط، فهناك توجد ايضاً اعداد من المقاصل في الازقة الضيقة، ومعها عدد من المشانق التي كانت تعلق عليها اعداد من العبيد، من اولئك الهاربين الذين يتم الامساك بهم. هذا الامر كان معروفاً هناك. بدأ بحارة سفينة العبيد بربطنا بالسلاسل. وكانت حركاتهم الماهرة تدلل على أنهم يتقنون عملهم جيداً وكانت اكثرية الطاقم من الانكليز، أما ستيل فانه كان ايرلندياً، وساندوڤال من البرتغال. بعدها علمت بانه كان راهباً سابقاً. باستيت كان فرنسيا تماماً. وعلى العموم فان الجميع كانوا من البحارة القدماء. وقد عرفت هذا الصنف من الرجال. فهم لا يبالون بالخطر، وكانوا يعملون مع العبيد ما يحلو لهم. ولم نكن نتوقع اشياء جيدة منهم.

دفعنا هوبكنز نحو الامام وهو يقول: «هيا.. هيا بسرعة..» وهناك ذابت اللغات والشعوب. والرجال لم يكونوا بحاجة الى كلام كثير في عملهم المضني. في الغالب كانت بعض الاشارات كافية لاجراء تفاهم كامل. وكان الرجال مكتفين باستعمال كلمات من لغات مختلفة لينسوا لغتهم الخاصة.

«هيا توجه الى قمرة القيادة، أيها القرصان الملعون!».

ولم يسر ذلك الرجل معي بشكل مستقيم، لأنـه كان يتفحص السلاسل بإمعان واتقان. ولم نكن قد وضعنا في الحسبان ان يقوم هذا الفرنسي بتقديم المساعدة لنا.

«وحسب القوانين التي تنظم شؤون السـود، والتي كان (كولبرت) قد قرأها لتوّه، فان على القبطان التعامل مع عبيده ليس وكأنهم حاجات بل التعامل معهم كبشر، وهذا الامر جيد، لاسيما ان كان يتعلق بعبيد بيض!» قال ذلك عصفـور الشؤم بغضب. وهذا الامـر خلق انفراجـاً في النفوس لدى الآخرين على ظهر سفينة (كيـلّارني) عدا أصحابنا..

بعدها أمر القبطان باريت: «يادكتور، رجاءاً افحص لنا إياً من العبيد الجدد!».

حينهـا اقترب الـرجل القصـير الذي كـان يرتـدي السواد. كان هذا الرجل هو طبيب السفينة. وكان الحزن يبدو على وجهه، ربما بسبب العقدة التي كانت تـلازمه لقصر قـامته. لكن عينيـه كانتـا تتحركـان بسرعة غـير اعتيادية هنا وهناك. وقـد تفحّصنا جيـداً وعرف فـوراً الوضع المأساوي الذي كنا جميعاً فيه.

وكـان قراره الفـوري: «انهم يحتاجـون الى ضعف الوجبات من الطعام من التي يتناولها العبيد السود الآن.

ثم تليها وجبات اعتيادية!» بعدها تفحص أسناننا أيضاً وتأكد من عدم اصابتنا بمرض الاسقربوط. ثم تساءل: «هل سبق أن اصبتم بامراض السفلس، او الكوليرا أو أمراض الاسهال؟»

«بالطبع»، قال عصفور الشؤم مدعياً وأضاف: «لذلك تم تركنا من قبل أصحاب السفينة الاصليين. واكثـرنا توفوا. والحذر يقتضي ان تتركونا على اليابسة باول فرصة تسنح،!»

وللصراحة فاننا لم نكن مصابين بهذا العدد الكبير من الامراض. وعصفور الشؤم بالغ قليلاً في طرحه. غير ان القبطان لم يخدع بتلك السهولة. «حسن، يادكتـور! أنا آمل أن يتحمل مرضانا الامر في الاقل لحين الوصول الى بورت رويال. وما يحدث لهم بعدها هـو عندي عـلى حد السواء. انزلوهم الى الطابق الاوسط. ويجب ان تراعوا قبل كل شيء ان لا يتحدث احد من اصحاب السفينة التي غنمناها تواً مع الآخر!» وكانت كلماته الاخيرة هي الاكثر وقعاً بالنسبة لنا. نظر أحدنا بوجه الآخر جـراء الرعب والخذلان. وقد أعطانا الرجال ملعقـة خشبية لكـل منا حملناها على اعناقنا بوساطة قطعة جلدية، ثم اقتادونا الى العنبر الوسطاني.

وبعد عدة خطوات مضطربة، شعرت بمدىٰ صعوبة السير ونحن مكبلين بالقيود.

ضحك باستيت بسخرية وقال: «ليس الامر سهلاً.. أليس كذلك؟ اضافة الى ذلك فان السباحة أصعب!».

ولم ألبث ان فقدت أصدقائي عن انظاري. ثم نزلت الدرج الى الاسفل وانا اتعثر بالسلاسل التي كانت تربطني. وفي الأسفل كان الظلام الحالك يحف بالمكان.

بادىء الامر تصورت بأني سأختنق من الروائح الكريهة، ثم تناولتني سخونة الجو وعملت بي ما عملت!

وعندما وصلت العنبر بدأت بالزحف على الاربعة، ولم يكن لي خيار آخر. أومأ لي أحد الحراس باشارة معينة، فتبعت ما أراد في مكاني من دون أن أتحرك وسط حشد من البشر الذين إما كانوا مستلقين على الارض أو بوضع جلوس. ولم يكن بالامكان الوقوف في ذلك المكان. وكان السجناء قد حشروا معاً. وقد أشار ذلك الحارس الى أحد الاماكن الخالية على الارض وقال: «هناك! اجلس، ولا تتحرك!».

فاستلقيت على ظهري قدر الامكان، وكانت السلاسل تعيقني، وضيقها كان يؤلمني بنحو لا يوصف. وقد تصبّب العرق من جميع أطراف جسمي، على الرغم من كوني

ألبس بنطلونا خفيفاً فقط. كان ذلك كل ما تركه لنا طاقم السفينة قبل أن يقيدونا بالسلاسل.

كان الهواء ثقيلاً وكأنه يقطع أوصالنا. وشعرت بأني ساختنق حتماً. وقد بقيت دقائق قليلة مستلقياً على ظهري وفمي مفتوح وذلك من أجل استنشاق اكبر كمية ممكنة من الهواء. وبلا أمل! وعندما مررت بلساني على شفاهي كانت يابسة تماماً. وكنت ظمآناً، ثم تطلعت الى المكان الذي سأقضي فيه من الآن أسابيع طويلة وساعات لا تنقضي. كانت الحرارة لا تحتمل بحق. وفوق رأسي على السطح كنت أسمع أصوات بحارة «كيلّارني» وهم يعملون. وكان بامكانهم الرواح والمجيء بكل حرية وبلا معوّقات. كانوا قريبين من الهواء النقي، إذ كان هواء البحر يهب بوجوههم، واملاح البحر كانت تستقر فوق رؤوسهم وشعورهم، حسبما تخيلت منظرهم. وربما لم يكونوا يشعرون بطعم الحرية التي كانوا يتمتعون بها، بعدها أغلقت عيني. فعرفت لتوي بأني قد نزلت الى الجحيم. وكان أنين السجناء ينتشر في عموم أرجاء المكان. وكان صوتهم يطغىٰ على أصوات أمواج البحر.

«أنا اسمي ڤامبا»، قالها شخص قريب مني.

«وأنا فرانسوا. قرصان فرنسي من جزيرة

السلاحف!».

«صحيح!».

ثم لحظت انه لا يعرف جزيرتي، وسكت.

بعدها استرسل بالحديث قائلاً: «لقد هاجموني على ساحل غويانا. وكنت عندها سجيناً لدى احدى القبائل المعادية. واعدائي قاموا ببيعي مع الآخرين. ونحن نعد اكبر ارسالية في هذا الموسم.

وقد شعرت بأن لديه الحاجة للتحدث، لذا فقد انصتُّ اليه. وعلى الرغم من التعب، والجوع والعطش، لم اجرؤ على قطع حديثه. وهكذا اكتشفت تدريجياً العالم الذي كان يحيط بي. وقد تحدث طويلاً عن اخوانه، الذين أصبحت أنا زميلهم الآن وكانوا ضمن قبائل افريقية عديدة، كانت في نزاعات طاحنة مستديمة. أما تجار الرقيق فقد اكتفوا ببيع اسرى الحرب وجرجرتهم مثلما فعلوا مع قامبا. وهكذا فقد باعت القبيلة الحربية المسماة (ماندنيگوس) في ساحل (غويانا) الغني بالذهب والعاج سجناءها وكأنهم «خشب الابنوس» الى البيض الفائزين بالحرب (وفي عام ١٤٤٢ بدأ البرتغاليون بممارسة تجارة الرق. وفي عام ١٨١٥ منعت هذه التجارة).

«ولم تقوموا أنتم بأي عمل من أجل تحرير أنفسكم؟».

«كلا، فالرجال يفضلون قتل انفسهم!».

«الانتحار؟».

«نعم، فهم يتثاءبون بلا انقطاع أو يأكلون الغبار والتراب. أما الـ (إيبوس)، فإنهم يعرفون هذه المهنة جيداً، علماً بأنهم يشترون الرقيق شرق دلتا النيجر. لذلك فان الفلاحين الهنود الغربيين يدفعون لهم مبالغ أقل، وهم يعدون مستثمرين غير جيدين للأموال».

كذلك فإنه اوضح لي بأن بعض العبيد يرفضون الاكل، لأنهم يريدون الموت. ولكن حتى الموت لم يكن مسموحاً بالنسبة لهم. وفي حالات كهذه تتم معالجة الشخص الرافض بطريقة معينة، حيث يتم فتح فمه عنوة واعطائه الماء والطعام اجبارياً.

صمت (قامبا) لحظة. ان ما يتحدث عنه يجب أن يكون صحيحاً، لأن المرء ليس بوده أن يكذب في حالات مريبة كهذه.

ثم بدأت انظر للسجناء بمنظار آخر. فقد كانوا يعيشون في أسىً عميق، بيد أنهم لم يهتموا بذلك الامر. كان هذا اكتشافاً عظيماً بالنسبة الي. وبالتأكيد فانهم كانوا يعانون، لكنهم لم يحنوا رؤوسهم لقدرهم الذي وضعهم في هذا الوضع المحرج. ومن شدة قوّتهم

وصلابتهم فأنهم لم يكونوا ليتنازلوا للحراس حتىٰ في قضاء حاجاتهم!.

ومنذ الصباح كنت اعاني من صداع في رأسي. وقد بدا الامر لي وكأن الافكار تتناطح فيما بينها بقوة وألم. ولم أعلم انني كنت مصاباً بالحمّىٰ أيضاً؟

بعدها بدأت أتأمل وضع العبيد أيضاً. انهم لم يخططوا لأية ثورة، لأنهم عوملوا وكأنهم بضاعة معينة بامكان المرء الحصول عليها وبكل سهولة. وفجأة خطرت ببالي فكرة تقول ان هؤلاء البشر فارغون داخلياً. وربما يكون تجار الرقيق قد فكروا قبلي بهذه الطريقة التي خطرت على بالي الآن. لكن هذا الامر لا يمكن أن يصح أبداً. ماذا يفكر ساريل وآيزن آرم والاخرون بهذا الخصوص؟ كان الحزن يملأ جسمي، لكوني افترق عن زملائي لاول مرة.

لم تنفع كل تلك الافكار والتأملات، اذ كان علي ان اتوافق مع الواقع الجديد. قمت اثرها بالتطلع الى السجناء الآخرين في المكان المظلم باكثر دقة. وكانوا يختلفون عني وعن زملائي تماماً. كان يخيّم عليهم الحزن واليأس. ولكن على الرغم من كل ذلك، فقد شعرت فجأة بأني قريب منهم تماماً وكانت معاناتهم مثلي وعندهم

الامنية الوحيدة نفسها: الحياة! كان ذلك هو الشيء الوحيد الذي يريده الجميع.

ثم قلت بصوت عال: «نعم. سوف أتمكن من الخروج من هذا المكان، ولكن عليّ تحرير هؤلاء العبيد معي أيضاً!».

«مستحيل؟».

لقد قررت الكفاح، ومنحهم القليل من جرأتي وشجاعتي. ولم أعرف أن كانت الارادة كافية وحدها لاعادة المرء الى صوابه. المرء الذي سُلب منه كل شيء ليبقىٰ وحيداً تماماً وبلا عون؟ وقد أردت اقناع نفسي بتلك الفكرة، ثم تمكنت من التوصل الى ذلك تدريجياً.

وبعد ذلك، ولدىٰ رؤيتي تلك الاشكال التي فقدت الارادة وهي تقبع حولي، فقدت فجأة كل أمل مرة ثانية. ثم وقعت انا نفسي في حالة احباط لا يمكن التغلب عليها.

«هيا، انهضوا! ولا تبقوا خاملين بهذا الشكل!».

وفي اليوم التالي تم السماح لنا بالصعود الى سطح السفينة مرتين وذلك من أجل تناول طعامنا. كان ذلك في الساعة العاشرة صباحاً والرابعة بعد الظهر. وكان توزيع الطعام يتم في مقدمة السفينة دائماً، أي على مسافة كافية في بعدها عن الاماكن المهمة واشغال حياكة الشِباك،

وغرفة السلاح، التي يتم خزن البارود والسلاح والذخيرة فيها. وكان افراد سفينة العبيد يقومون بحراستنا وبنادقهم مشرعة ومصوبة نحونا. «هيا، استعجلوا! وبلا زحام! وإلّا..».

تجمّع العبيد على السطح الرئيسي. وكانت المدافع المحشوّة مصوّبة نحوهم باستمرار، كما ان فتيل الاشعال فيها يشتعل ببطء. وقد التفتُّ حولي لأرىٰ النساء والاطفال أيضاً وهم يحشرون في احدىٰ زوايا سطح السفينة كان الطعام يتألف من كيلة شوربة ذرة لعشرة أشخاص، وهذا ما لم يكن كافياً بحق لهذا العدد. بعدها توجّب علينا أن نمر على جرادل الماء ونحن في صف طويل ونحمل أكوابنا بيدنا ليشرب كل واحد منا كَيلة واحدة بذلك الكوب من الماء العكر. ما يلي ذلك هو وجوب نزولنا الى جحورنا المظلمة في أسفل السفينة. ولم يكن لدينا الوقت الكافي لاستنشاق الهواء النقي والقاء نظرة على البحر. فيالها من حياة!

أما البطالة والحشر معاً مع اناس آخرين فانها كانت تحطم أعصابي. ولم أعرف جدوىٰ انتحاري مثل قبائل الـ (إيبوس)! كان ثمة فكرة تعجبني، ألا وهي أن سعر بيعي كان سيجلب للانكليز أموالاً أقل من أضعف فتاة رقيق!

ثم استلقيت قرب (ڤامبا)، وجسدي الرطب التصق بالخشب تماماً. لفَّ السكون المكان الذي حولي، وقد شعرت بخيبة الامل مثل العبيد الآخرين. وبحنين بالغ استرجعت الصور الملونة الزاهية للساعات الرائعة في حياتي واستعرضتها أمام عيني. كانت تلك هي الجنة الضائعة!



عبد بين العبيد:

كان (ڤامبا) أحد أجمل العبيد على ظهر السفينة. وبجثته الكبيرة تلك وقوة شبابه كان حتماً سيجلب كثيراً من النقود في ميناء پورت ـ رويال. هذا الامر كان معروفاً لديه، لأن الطلبات على أمثاله كانت كثيرة. وعلى الرغم من

ذلك فان مستقبله لم يكن ليحسد عليه حسبما أوضح لي هو مرات عديدة. وكان الزرّاع يلهثون وراء هذه «البضاعة» بسبب الارباح التي تعود عليهم من ورائها. والشيء الذي كان ينتظره هو (١٨) ساعة من العمل الشاق يومياً وتحت الشمس الاستوائية.

قال ڤامبا: «هذا الامر لا يستطيع تحمله أي عبد اكثر من عشر سنوات متواصلة».

وأضاف: «كما أن المتقدمين بالسن يتحطمون بوقت مبكر اكثر. وفي المزارع الخاصة بمعامل السكّر، فان المراقبين يقومون بتشغيل العبيد في اثناء جني المحصول حتى الساعة الحادية عشرة ليلا. ويتم تعذيبهم باستمرار ويتم اجبارهم كذلك على العمل، وحتىٰ في أوقات قيظ الضهير».

أكان علي أن انتهي مثلما ينتهي هؤلاء العبيد بعدما أعجل في الزراعة مدة عشر سنوات في معامل قصب السكر، أو أن أقوم بخلط مزيج الاصباغ باستمرار طوال تلك المدة؟ لكن لم أكن أنا الذي يستسلم بهذه السرعة، ولا جماعتي الذين معي. وقد قررت أن اعيد الاتصال مع آيزن آرم بالسرعة الممكنة.

استرسل ڤامبا بالحديث قائلاً: «ان التاجر دفع لي

حتىٰ مبلغ برميل صغير من مشروب الروم لكوني ضخم الجثة، وان سعر العبد الضخم مثلي..»».

كان ڤامبا يتحدث بمزيج من المرارة والكبرياء. وكان قد فقد حريته وفي الوقت نفسه حصل على امتياز معين بسبب مواصفات جسمه وقوته. برميل صغير من الروم!

وقعت عيناي على فخذه. مثل بقية السجناء فان ڤامبا كان يحمل علامة التاجر التي طبعوها بوساطة الحديد الساخن على فخذه. وكان قد لاحظ نظراتي، وكأنه قد قرأ ما كان يدور في خاطري فقال مبادراً: «من أجل تمييزنا، فان الرجال يستخدمون سيفاً فضياً رقيقاً يقومون بتسخينه في النار. ثم يقومون بدعك الجلد بالشحم ثم يضغطون السيف المتقد على المنطقة تلك. اثر ذلك يحترق الجلد ويتورم ثم تبرز الحروف عند التآم الجروح».

هذه العلامة ستبقىٰ عليه من دون أن يتمكن من الهروب من صاحبه الى مماته. ثم أضاف ڤامبا:

«وفي غضون عشر سنوات تختفي تلك العلامة».

لم اسمع القبطان (باريت) بعد وهو يتحدث عن ذلك الامر، وبأنه يريد رسم علامات على عبيده الجدد. وربما يكون هو قد نسي ذلك مؤقتاً. كما انه ليس من المستبعد ان تتولد لديه الرغبة يوماً ما ويقوم برسم علامته على

القراصنة الفرنسيين الذين يعتقلهم على ظهر سفينته.
عندها قمت باقناع نفسي بأن الامر عندي سيّان، ولكن المهم ان يبقىٰ الوجه مصاناً وغير مشوّه. نعم، لم تدخل الى نفسي أية هلوسة بخصوص القبطان. ولم أعرف في الواقع لماذا كان يخفي حقداً كامناً مستديماً. وكان يمتلك لهذا الغرض قوة ارادة غير اعتيادية، لكن ذلك هو بالذات شرط لا محاد عنه في مضمار هذه التجارة. وهكذا فانه لم تسنح لنا أدنىٰ فرصة من أجل السيطرة بالقوة على سفينته عندما صعدنا على سطحها.

وقد سمعت باستمرار في منطقة (تورتوكا) وجامايكا أيضاً بأن تجار العبيد القساة بالذات لا يترددون أبداً من قطع ذراع أو رجل العبد الاسود الذي يحاول الهرب لدىٰ الوصول. وعلى ظهر سفينته (كيلّارني) تمكنت فوراً من اقناع نفسي بأن هذه لم تكن قصة خرافية. وفي مقدمة الطابق الاوسط كان هناك أحد العبيد وهو في نَزَعِهِ الاخير. كان ذراعه الايمن مقطوعاً.

«في قبيلتنا يعتقد الكثير بأن الذي يفقد أحد أطراف جسمه لن يذهب الى الآخرة»، قال ذلك ڤامبا ثم اضاف: «ذلك يعرفه البيض. وعندما يكون هناك مثال رادع امام الاعين، فان السجناء يلزمون جانب الصمت».

وببطء بدأت أفهم حالة خنوع الرجال، وفجأة تملكتني موجة الغضب.

حينها قلت: «اواه ياڤامبا، ياڤامبا.. القبطان نعم، في يوم ما سيكون حساب (باريت) معي. لكنني لا أعرف حتى الان كيف والشيء الذي بامكانك تصديقه هو اني لا انتظر للابد!»

«ماذا تريد أن تفعل؟ وأنت لست بقادر على عمل شيء..»

«حالياً نعم. لكنني سأفكر بهذا الموضوع حتماً. ويجب علينا أن نحاول..» وبالطبع فاني كنت عارفاً بمدى خطورة أمر مهاجمة القبطان. وكان عليَّ أن أتصرف معه مثلما اتصرف مع أفعى سامة. ومن غير سلاح كان من المستحيل القيام بأي عمل. ماعدا ذلك فان وجهة نظر (ڤامبا) كانت تبدو وكأنه لا يوجد هناك مخرج من هذه المشكلة.

«أتعلم ياقرصان، بأنه يوجد قباطنة مثل (باريت) في عموم بحار العالم».

وعندما تدخل فكرة في رأسي، فاني لا ابعدها عني بسهولة. هكذا هم اناس منطقة نورماندي. ولحد الان لم يتمكن البحر الكاريبي من خنق ارادتي. وآمل أن يبقى

الامر مستمراً هكذا مدة اخرى ايضاً.

لم اتحدث مدة ثلاثة ايام مع ڤامبا حول نيتي بأخذ الثأر من القبطان (باريت). كان على الامور أن تأخذ مجراها. وعليّ أيضاً ان افكر بمجمل الامور بنحو مضبوط، وقياس مدى فرص نجاحنا. وللحق اقول ان تلك الفرص لم تكن وردية ومتفائلة.

كانت سفينة (كيلّارني) سفينة مرموقة لا يوجد فوقها ما هو زائد أو مترف. فالمقدمة والمؤخرة كانت اشكالها وصناعتها اعتيادية ومألوفة. وكل شيء على سطح هذه السفينة كان ذا فائدة عملية كبرى. وكان صندوق حماية المؤخرة مندفعاً الى الوراء وذلك من أجل ضمان حماية اكبر، وكذلك تأمين حالة دفاع أفضل عند حصول عصيان ما على ظهر السفينة. كذلك فان الشباك المنصوبة عند المؤخرة تعيق محاولات الهرب التي قد يقوم بها هذا السجين أو ذاك عند محاولة القفز بالماء. وبين السارية الكبرى ووسط السفينة كانت هناك بعض البراميل التي لم أتوصل الى معرفة ما بداخلها.

وختاماً فان تواجد الجواسيس بين السجناء يقضي على كل محاولة أو حتى على أية خطة للعصيان على السطح.

«يجب أن تكون هناك نقطة ضعف في مكان ما»، قلت في

نفسي وذلك من أجل اعطاء نفسي عزيمة اكبر تجابه كل تلك الصور المرعبة التي مرت بخيالي. نعم، ويتوجّب عليَّ أن أدرس جميع الامور بدقة فائقة واقيمها حق التقييم.

وفي الحجرة حصل زحام من الناس في الوقت الذي لم يحن بعد وقت الطعام.

مرة واحدة في الاسبوع يقوم حراس سفينة (كيلّارني) باخراج السجناء ليس من أجل الطعام وانما لكي يستحموا. حينها استعرض العبيد الواحد تلو الآخر أمام احد المراقبين وهم في صف طويل. وكان هذا المراقب مسلّحاً باسفنجة كبيرة بيده يقوم بغطسها كلما يمر سجين أمامه بدلو فيه حامض النبيذ ويمرره على رأس السجين الذي امامه لقتل الدمامل والبراغيث. وبالطبع كان عليّ أنا أيضاً الخضوع لهذه الصيغة الروتينية. وعلى تلك الشاكلة كنت سابقىٰ في الاقل نظيفاً لدرجة ما. وقد تأكدت بأن مجمل العملية كانت تسير بود، وان الحراس كانوا لا يلتزمون بجميع الاجراءات الامنية كما هي. ثم عرفت لاحقاً بأن جميع حالات العصيان كانت تندلع اثناء فترات تناول الطعام، لكون العدد الاكبر من السجناء كان على سطح السفينة. لهذا السبب كان البحارة حذرين جداً في فترات الطعام. أما في فترات الاستحمام فان عصياناً

مثل ذلك لم يحصل بعد لغاية هذا الوقت.. وربما ستكون المفاجأة لدىٰ حصولها كبيرة جداً. وربما تكون تلك هي فرصتنا الوحيدة.. ومرة ثانية لدىٰ عودتنا الى العنبر الذي نسجن فيه، مررت بأصابعي بين شعر رأسي وقمت بلحس أصابعي مثل الاخرين وكان طعمها لذيذاً جداً. ولمدة ربع ساعة كاملة كانت معنويات الجميع جيدة في السجن. وقد قمنا بتغيير في الجو الذي كنا نعيشه ولو بنحو بسيط.

«آه لو كان خنجري فقط معي!» قلت ذلك لثامبا وأضفت: «حينها كنت سأحلق شعر رأسي تماماً مثل مصارعي الثيران.. وبأمكاني تصور شكل القبطان باريت أمامي..».

«بامكان القبطان القيام بجلدك.. والشعر الطويل يزيد من سعر العبد». قال ذلك ثامبا.

وبالطبع كان الامر بالنسبة لتاجر الرقيق سيكون أسهل كثيراً في حالة حلاقة شعر الرأس للسجناء. لكن الامر السائد في منطقة الكاريبي في ذلك الوقت ان الرأس الحليق يخبيء حتماً شيئاً ما تحت بواطنه لدىٰ العبيد، وعلى سبيل المثال قيامه باخفاء عمره الحقيقي. لذلك فان تجار الرقيق كانوا على دراية تامة بتزيين وجوه عبيدهم من الذين كانوا يعرضونهم للبيع. وهكذا فقد كُتب في احدىٰ

الرسائل التي وجدها القراصنة على ظهر احدى السفن الهولندية النص التالي:

«لا يوجد في عموم البلاد بنت تحب التنظيف بامكانها الحلاقة بهذا الشكل الدقيق مثل تجار الرقيق، الراغبين باخفاء اعمار عبيدهم. ويتم كذلك غسلهم بنظافة تامة وحلاقة شعرهم ودعك جلودهم بالملطفات العبقة الرائحة. اضافة الى ذلك فانه يتم اما صبغ الشعر الابيض في اللحية أو في الرأس أو يتم رفعه بالملقط..».

وكان من ضمن الامور المعروفة بين المزارعين ان المرأة الحامل السوداء مرغوبة باستمرار كتجارة رابحة. فذلك يعني بان المرء اشترى عبدين بسعر عبد واحد على الرغم من كون كلفة اطعام الطفل محسوبة أيضاً علاوة على السعر. هذا الطفل الذي لا يقدم عملاً ما مدة ست سنوات في الاقل.

قال ڤامبا بيأس: «ان كل أجسامنا هي لأسيادنا!»

«ذلك صحيح، ولكن أسيادكم لا يستطيعون الوصول الى أرواحكم».

«روحي؟ آه كفى ذلك!» قالها (ڤامبا) وهو يتنهد وأضاف: انا لا أعرف. انظر فقط الى اولئك الحراس. انهم يقومون بالعمل الذي نقوم نحن به نفسه. فهم عبيد

أيضاً.. وبالتأكيد فان القبطان قد تمكن من تحريضهم ضدنا».

«وهل وعدهم بمنحهم الحرية؟».

ضحك ڤامبا بصوت عال وقال: «كلا، كلا، انهم يحصلون على حفنة من الفاصوليا اكثر منا!».

والبعض من اولئك العبيد تتم معاملتهم فعلاً بنحو جيد. وهؤلاء هم من الحراس والجواسيس. واولئك هم من سكنة مناطق السواحل على الاكثر.. لذلك فأنهم متعودون على عادات البيض. ويقوم تجار الرقيق باستثمار شعور التفوق الذي يشعرون به ازاء سكان المدن الداخلية..

قال ڤامبا: «وكعلامة لوظيفته الجديدة، فان الحارس الذي يتعين يحمل رسم قطة ذات ذيول متعددة»

«وهم فخورون بذلك الرسم ويكسبهم المزيد من الحماس في عملهم وادائه على نحو جيد، كذلك فانهم الآن يشعرون بأهميتهم وخشية الناس منهم». وقد صمت للحظة ثم قال: «عندما وصلنا الى ظهر السفينة، قدم لي القبطان (باريت) ذلك الرسم نفسه للقطة مع حفنة فاصوليا، وذلك لأنني من الساحل واتحدث بلغة البيض».

ـ «كان عليَّ أن لا أقبل منه ذلك، وماذا فعلت أنت»؟

ـ «قلت له بأني ضعيف لنيل وظيفة حارس».

ـ «لقد عملت منه اضحوكة. وهو؟».

ـ «لقد قال ان ما يهمه هو بضاعته وارتفاع ثمنها عنده. وان لم يفكر بثمني وقيمتي عنده يوماً ما، فانه سوف يستخدمني كمثال تحذيري!».

هل تعتقد بأنه سيقوم بقتلي»؟

«انتظر. وأنا أتجنب إثارته على أية حال. وربما ساتمكن من السيطرة على نفسي باستمرار. ومع الوقت.. ان العبور من غويانا الى الجانب الاخر من المحيط يستغرق مدة شهرين أو ثلاثة».

ـ «هيا، انهضوا!» صاح الحراس بالسجناء

ـ «من أجل الرقص على السطح»!.

وفي المساء يفسح المجال أمام السود «للقفز». كما أن عليهم أن يرقصوا حسب الموسيقىٰ الخاصة بهم وببلدهم. هذا الامر لم يحصل جراء حب البشر، وإنما لكون هذا التمرين يعطيهم بعض الحركة والنشاط، وان انشراح المرء جراء ذلك يؤدي الى التمسك بالحياة.

وعندما كانوا متجمعين على سطح السفينة، أعطىٰ لهم الحراس بعض الادوات الموسيقية وقطعاً من الجلد الموتر التي أصبحت مثل الطبل. كذلك كانت توجد بعض الادوات التي تعمل مثل الكمان.. وكانت أصوات الطبل تنبعث أيضاً من البراميل الفارغة.

وقام السجناء بالاصطفاف صفاً طويلاً بانتظار دورهم في الرقص، والكبار منهم جلسوا على الارض وقاموا بالتصفيق في ايقاعات جميلة. وقمت أنا بالجلوس بينهم أيضاً.

«هيا الآن، ليبدأ الرقص.. وساعة واحدة في الاقل!» قالها القبطان آمراً.

اثرها قام البحار (بورگة) بضرب قطعتين من الحديد ببعضهما اشارة لبدء الرقص، فبدأت الموسيقىٰ بالعزف. وقمت أنا بالتركيز على احدىٰ الرقصات الحزينة وعلى منظر الرجال الذين يؤدونا وفق أمر صارم وبحركات لا معنىٰ لها، وذلك من أجل فتح سريرة تجار الرقيق وزيادة انشراحهم. ولم يكد الموسيقيون ينهون معزوفتهم الاولىٰ، الا وبدأ الرجال قربي بترديد اغنية موحشة وبطيئة ومتكرّرة. وكانت تلك الاغاني تقاطع من قبل صيحات مدوّية أو فترات استراحة. وبصفوف طويلة تحركت الاجساد العارية السوداء على سطح السفينة وبجنون. وقاموا بالرقص على أرجلهم اليمنىٰ تارة واليسرىٰ تارة اخرىٰ وغيروا بين الحين والحين الايقاعات ومع

الموسيقى.

لقد رقصوا!

وكانت مسرحية رائعة!

وقد حصلت تحت انظاري عملية تغيير عجيبة.

فهؤلاء لم يكونوا عبيداً تم أخذهم عنوة من افريقيا، وانما محاربين جيدين يؤدون رقصات ايقاعية. وقد بدوا لي بحجوم اكبر، وأجسام رشيقة اكثر، وجميلة واقوى مما كنت أتوقع. وقد توقعت ان تكون لديهم قوة غير اعتيادية، وكانت أذرعهم كأنها تطلق الرماح غير المرئية، وأرجلهم كانت كأنها تقودهم الى معركة شرسة منتصرة.

أما (هوكنز)، وستيل الايرلندي، وبيير باستيت، وسيفورث فانهم كانوا يمسكون ببنادقهم بين أرجلهم والسكائر على شفاههم، أما القبطان فقد اختفى عن الانظار في تلك اللحظة. والطبيب كان يتخطى رواحاً ومجيئاً، وذلك من أجل أخذ فكرة عن «البضاعة» التي امامه. كل ذلك اخذته انا بنظر الاعتبار. ولبرهة تناسيت جميع الرغبات غير الانسانية في تحقيق الارباح، ونظرت فقط الى الرغبة في الحياة التي كانت تتجسد في أعين الراقصين، الذين تم تحريرهم قبل وقت قصير من حالة الاحباط التي كانت مسيطرة عليهم.

والسبب في ذلك يعود الى انهم أصبحوا الآن أحراراً، ولو صورياً. ولم تكن الاصوات التي تنبعث من تحت أقدامهم هي قرقعة خشب سطح السفينة، وإنما كما لو كانوا ثانية على أحراش غابة خضراء، وفي أحضان قبيلتهم. وقاموا بالرقص ضمن مجيط قريتهم.

وكانت أصوات الطبل والايقاعات تتردد بانتظام.. تونگ، تاگا تونگ، تونگ، تونگ..!

فبأي مناسبة كان احتفالهم؟ أكان بمناسبة انتصار الخير على الشر؟

بعدها صفق (بورگه) بقطع الحديد التي في يديه محدثاً ضجيجاً وصاح قائلاً: «قف»!

ثم توقف الرجال فوراً، عدا واحداً منهم.

وقام بالرقص وحده لمدة نصف دقيقة، وكان غارقاً في حلم لا يتحقق، ويهز رأسه يمنة وشمالاً، وشعر بنفسه تمام الحرية..

مرة اخرى انبعث صوت السوط، عندها توقف هو أيضاً، والعرق يتصبّب من اطرافه كافة وكان يوجه نظراته نحو الافق البعيد.

«كونوا في صف واحد!» أمر هوكنز.

قام السجناء باطاعة الامر بلا مقاومة. وكانت جلودهم

تشع حرارة وبخاراً، وتلتمع كأنها العاج الاسود. ولكن أين أصبح المحاربون الشجعان القادمون من الاحراش؟ وقد تدلت اكتافهم نحو الامام، وفقدوا انتصاب قامتهم ووجهوا أنظارهم نحو الارض. إضافة الى قيامهم بمـد أياديهم وذلك من أجل تكبيلها بالاصفاد ثانية. وقد رأيت خيبة أملهم عندما شعروا بـالمعدِن الصُّلب وهـو يمس جلودهم.

وكان عليّ أن أعود معهم ثانية الى العنبر الوسطاني. وهناك في الاسفل ذابت جميع الفروقات فيما بيننا. فقد أصبح الرجال الاحرار عبيداً أرقّاء ثانية.



طبيب السفينة:

قلت لقامبا: «هيا، سنقوم بشحذ قبضات ملاعقنا».

- «وكيف؟».

- «نحن نحتاج اليها فقط على ظهر السفينة لتحريكها والأكل بها. ومع الأيام نستخرج من الملعقة سلاحاً، أي ما يشبه الخنجر».

- «ولكن ذلك سيستغرق دهراً من الزمن».

- «ثم ماذا؟».

- «وكيف سيكون الامر عندما تتم الوشاية بنا من قبل الجواسيس؟»

- «ليس بامكانهم القيام بذلك أبداً. فنحن سنقوم بالغناء وبتحريك الملاعق حسب المعهود. بعدها لن يخطر ببالهم أبداً، بأننا بصدد القيام بانتاج سلاح ما. كما ان القبطان (باريت) سيعتقد بأننا بصحة ومزاج جيدين».

تردد (ثامبا)، وفكر برهة، ثم قام بالتحدث بصوت واطىء مع بعض زملائه الآخرين وقال أخيراً: «حسن، ولكن اولا سنقوم بالغناء بصوت واطىء».

- «ممتاز!».

ولم يخطر ببالي ولو مرة واحدة مثلا، بأن الاغاني، والتي توجّب عليّ من الآن فصاعدا سماعها ولساعات متواصلة يمكن أن تكون حزينة هكذا وتحطم الاعصاب. وقد بدا بأن السود كانوا يرددون ترنيمة صلوات معينة وبلا انقطاع. غير ان الاغاني التي كانت ترافقها ايقاعات معينة عاودت الانطلاق ثانية على ظهر السفينة. أما تعليماتنا، فقد انتشرت مثل نار في الهشيم وبسرعة من وراء ظهور الحراس. ولم أدع الملاعق التي كانت مبعثرة

على الارض تغيب عن أنظاري. وربما تمكنا نحن بوساطة تلك الادوات من ايقاد شعلة الحرية، وذلك مثلما تتكون النار عندما يحك المرء الخشب أو حجر القدح ليتولد بعد ذلك لهيب النار.

سارت الحياة على سطح السفينة برتابة احادية مضجرة. وكان الوقت ينقضي ببطء وعذاب.. وبانتظام كان جرس السفينة يُسمع.. وكان من الامور المحببة بالنسبة لي مثلما هي حال بقية الرجال على ظهر سفينة «كيلارني» أن أقوم بالحراسة اما على مؤخرة السفينة أو على السارية. وقد كنا نشعر بألم بأننا كنا معزولين تماما عن الحياة الاعتيادية في السفينة. وحالنا حال الارقاء الآخرين من هذه «البعثة» ونعد وبكل بساطة كنوع من أنواع البضاعة.

وكانت المعاناة الاكبر التي مررنا بها هي افتراق أحدنا عن الاخرين. ومثلما علمت لاحقاً، فان حال اصدقائي كان مثلي تماما. وقد كنا نلتقي مع زملائنا في أوقات الطعام فقط. عندها اعطيت لساريل اشارة، وذلك من أجل اثبات صداقتي له. لكن رد فعله كان ضعيفاً. واعتقد بأنه كان في حالة حزن مقيتة. وقد استنتجت من تصرفاته بأن الحظلم يحالفه مثلي ليستلقي قرب شخص مثل (ثامبا) يتحدث

الفرنسية. وكانت مدة الطعام تنقضي دائماً بسرعة. وفور انتهاء الطعام كنا نتشوق الى اللقاء في فترة التمشي على سطح السفينة. وفي ذلك الوقت كنا نقوم أنا وآيزن آرم. وآين اوگه، وعصفور الشؤم، وايڤز وباستمرار بالصفير وترديد أغنية ساينت ـ مالو:

قرصان ساينت ـ مالو
يلاحق البريطانيين في البحر
ارفعوا الأشرعة.. ارفعوها عالياً

وبالطبع لم يكن بالامكان ان ننبس ببنت شفة من تلك الاغنية بحضور طاقم السفينة. فما كنا فيه من حالة مزرية كان يكفينا. ولم يكن بالامكان كذلك استخدام ألاعيب اخرىٰ. بيد أن الاغنية التي كنا نرددها بعثت الدفء في قلوبنا جميعاً، وولدت شعوراً مريحاً بالتقارب فيما بيننا. فكانت هي اغنية مقاومتنا وساعدتنا على عدم فقدان كل شجاعتنا في معتقل الاعداء.

ولكن لماذا لم يصفر ساريل معنا؟

بعدها اتخذت خطط هربنا وعلى نحو غير متوقع اتجاها جديداً تماماً ومشجعاً، وفي الواقع من خلال الطبيب سترونگ.

وكطبيب للسفينة كان هو وحده يتحمل المسؤولية

الكاملة «لحالة» الحمولة البشرية التي كانت محشورة في المخازن. وكان عليه ان يضع في حسبانه فضلاً عن الامواج العاتية وهجمات القراصنة وحالات العصيان بعض العدوىٰ التي قد تنتقل اليه من بعض المرضىٰ. هذا العمل الذي لم يكن يعود عليه بالكثير من الراحة المفرحة. وعلى الرغم من كونه معاقاً لدرجة ما لفخامة جسمه، فانه كان يعذب نفسه يومياً في النزول الينا والزحف للوصول الى عنبرنا. وكان يريد أن يكتشف كيفية انتقال المرض من جاري الى الذي على يساره.

فالرجل كان كبير السن تقريباً، وكانت فيه دودة غينيا. وقد كان الدكتور سترونگ يتطلع فقط الى كيفية معالجة ذلك المريض حسب طريقة قبيلته نفسها. هذه الدودة كانت تنمو داخل الجسم وتنتشر لتصل الى الساقين وأجزاء الجسم الاخرىٰ. وكان ذلك يسبب آلاماً مبرّحة للمصاب بها. وعلى الرغم من ذلك فان جاري لم يشكو ولو قليلاً جراء الآلام. وبصبر كبير تمكن من تحمل تلك الامراض وتجاوزها. وفي أحد الايام قال الطبيب لي: «ان الاسود تتحسن حالته كثيراً، وكنت لن استطيع علاجه بطرقنا بنحو افضل من علاج قبيلته» رددت أنا والسخرية بادية في كلامي: «ان القبطان سيفرح لهذا الموضوع».

«آه.. القبطان!».

وعلى نحو مخالف تماماً للآخرين من الطاقم، قام هو وللمرة الاولى بالتنويه لي بوجود نقص في تطابق الآراء بينه وبين (باريت)

وحسب نصيحتي قام (ثامبا) باقناع جاري في الجانب الايسر ليقول انه يشفى ببطء لكسب وقت اكبر مع الطبيب. وقد كنت احتاج الى وقت اطول من أجل التقرب اكثر من الدكتور سترونگ.

أما الماء النقي على سفينتنا فانه كان قد فقد طراوته منذ زمان بعيد، لأن الحرارة كانت قد فعلت فعلها. وكانت كميات الماء تلك قد تعفنت وبكميات كبيرة. وأصبح لونها يحيل الى الخضرة ورائحته اصبحت تشابه رائحة البيض الفاسد. وبعد استفسار من قبل (ثامبا) أوضحت له: «ان تم الانتظار مدة طويلة فسوف يتصفى الماء ثانية، ونحن لا يمسنا منه الا القليل».

وفعلاً، فقد استغرق الامر مدة طويلة الى ان بدأ العفنْ الطائف على السطح بالنزول الى قعر الماء. وأخيراً فقد تبدل لون الماء ليميل الى الصفرة. وكان طعمه اعتيادياً تقريباً. كذلك فان أفواهنا الجافة قد تعودت عليه فوراً.

الدكتور سترونگ أعلن في أحد الصباحات: «سنصل

اليابسة قريبا!»

ـ «وماذا يعني ذلك»؟ قلت أنا بامتعاض.

قال الدكتور: «غير مسموح لك التحدث هكذا، أيها الشاب!».

قلت؛ «انك تفكر يادكتور فقط بقيمتنا في السوق عندما تقوم بالاعتناء بي!» اثرها كان الدكتور غاضباً وأجاب بجفاف: «كلا، أبداً! وعليك ان تعرف بالتأكيد.. ما هو سبب اهتمامي بك؟».

«بصراحة، نعم، يادكتور».

حسن اذن. عليَّ أن اخبرك بأني لا اوافق باستمرار على وسائل القبطان، وبالذات، الشيء الذي يخصك أنت!

وقد صمت الدكتور، ولم يكن محتاجاً لأن يكمل حديثه، لأنني كنت عارفاً جيداً مثله تماماً كيفية سير الامور بين تجار الرقيق.

وقباطنة هذه السفن كانوا يمارسون مهنة خشنة. فقد كانوا من أسر عريقة ويضعون الباروكات، ويحملون السيوف والازرار الفضية على أحذيتهم. وكانوا يهتمون أساساً بأوليات قادتهم البحريين، والذين كان عليهم تثبيت أواصر هذا الفرع من التجارة قانونيا.

أما السفن فقد كان يتم بناؤها في مرافيء (نانتيس).

كذلك فقد كان يتم أخذ الكثير من البضائع وشحنها على ظهر السفينة للابحار بها. وكانت أعمال المقايضة تدور على سواحل افريقيا، وخصوصاً على سواحل غويانا، حيث تتم مقايضة العبيد السود من رجال ونساء، واطفال وشبان وبنات ليتم بعدها بيعهم الى تجار العبيد والزراع الاخرين. وكان الشراء يتم بالسكر الذي تتم اعادته على ظهر السفينة نفسها الى منطقة نانتيس للتصنيع. وكانت تلك التجارة تسمىٰ بالكامل «تجارة المثلث».

قال الدكتور بعدها: «عندكم حظوفير! فالجورائع. وفي سفرتي الاخيرة جابهت مشاكل كثيرة. وكان نصف الحمولة قد مات، وذلك بسبب عدم السماح للعبيد السود بالصعود الى سطح السفينة ثلاث مرات في اليوم الواحد».

ثم قمت بضم قبضتي التي كانت السلاسل تثقل عليها وعلى مرافقي. وبوضوح تام تكونت امامي صور الرجال والنساء والاطفال من اولئك الذين صارعوا الموت في ظلام العنبر الوسطاني للسفينة ولفظوا أنفاسهم أخيراً. ولم اكن محتاجاً لأن اجهد نفسي اكثر لاتصور حالتهم المزرية.

وبمرور الايام كانت مكانة الطبيب سترونگ تتعزز اكثر في نفسي. وفي بعض الاحيان كان يجلب لي البسكويت في جيوبه. ثم قمت بالتقاسم مع ڤامبا سراً ومع زملائي

المجاورين الآخرين.

وبالطبع فقد حذّرت من كشف خطة عصياننا للدكتور، وذلك لأنه لم يكن من الواضح لدي بعد كيف سيكون رد فعله حول طرحي ذلك. وفي الواقع فانه لم يكن دائماً مع طروحات قبطان السفينة، بيد أن ذلك لم يجسد حسب وجهة نظري ضماناً كافياً. وربما كان يريح هو بذلك تأنيب الضمير لديه فقط عندما كان يقوم بمعاملتي بالدفء الانساني.

وفي أحد الايام طرحت له السؤال قائلاً: «كم هناك على ظهر السفينة من العبيد». فأجاب:

«(٤١٢)، ويوم امس فقدنا رجلين وبنتاً واحدة».

ـ «وكم كان عددهم عند بدء الرحلة؟»

ـ «بالضبط (٤٦٠) فرداً. وطبعاً أنا لا احصيكم معهم».

ـ «شكراً، يادكتور!».

ساد بيننا بعدها صمت مطبق. وعلى الرغم من بعض التحفظات فلم أكن انا غاضباً على الدكتور، لأنه كان يبذل ما بامكانه لخدمة السجناء. ويمكن القول انه بخدماته تلك ثبت كطبيب من الدرجة الاولى. وعندما لم يكن المرضىٰ يأخذون الكثير من وقته، فانه كان يقضي وقتاً اطول معي

على الرغم من الحرارة. وكان يصف لي المرض بنحو دقيق والنتائج التي يتوصل اليها مع المسبّبات. وقد تعلمت منه كيفية تشخيص الامراض المألوفة في المناطق الاستوائية وكيفية علاجها. فالامر لم يكن ليوضَّح بالكلمات، مثل الامور الكثيرة الاخرىٰ التي تعلمتها منه، والتي كانت عوناً لي في المدة اللاحقة.

وكان بودي أن اتحدث مع القبطان باريت وذلك من أجل رجائه لتقديم بعض التسهيلات للعبيد، ولزملائي ولي. وعلى سبيل المثال كان بودي لو مدد وقت التمشي اليومي على ظهر السفينة ساعة واحدة. وقد تمكنت وبمساعدة ڤامبا من منع عصيان كان ينوي العبيد القيام به. عندها كانت القيود لن تكون ضرورية، وكان عمل الدكتور سترونگ سيصبح أسهل.

وبالتأكيد فاني علمت بأن جهودي جميعها لم تثمر شيئاً. فالانكليزي سوف لا يدعني حتىٰ ولو مرة واحدة من طرح مالدي، مما سيؤدي الى أن ينشرح جميع افراد الطاقم. ولم يكن من المألوف حينها ان يقوم قرصان بالتحدث نيابة عن العبيد. ماعدا ذلك فقد كنت اخشىٰ من جلب الشبهة لنفسي لو تم احتكاك مثل هذا مع القبطان. وحيث اني حققت ومنذ البداية نجاحات لا مثيل لها، فقد

فضلت السكوت. وفي مناسبة اخرىٰ قال لي الدكتور: «اقوم هنا بواجبي فقط، ولكني اؤديه بنحو جيد. وكطبيب فأنا أعرف بأن الناس جميعاً سواسية من الداخل. ولكن فقط قدرهم هو غير متشابه. هل تعلم ماذا يقول القبطان باديت حول العبيد؟ يقول بأنهم سود فقط، وبأنهم ابناء (حام) ابن نوح الذي استهزأ بأبيه مما ادىٰ لالحاق اللعنة به مع اتباعه كافة، ولكي يصبحوا عرقاً اسود فيما بعد. وربما يكون ذلك صحيحاً أيضاً. ثم قام بعدها القبطان بتلاوة بعض الفقرات من الانجيل».

قلت: «انه لمن الواضح لي، بأن القبطان هو انسان ذو ضمير حي، وهذا الامر لا انكره ابداً... ولكن..».

- «ولكن، ماذا؟»

- «لكني لا أقرله الحق لمعاملة البشر هكذا، مثلما يعمل هو الآن! كلا، ابداً!».

عبّر الدكتور عن عجزه من القيام بشيء لتصحيح ذلك الامر بالقيام باشارة معينة ثم سكت.

وبانفعال حاد صحت في وجهه: «وأنا لا أقر أيضاً بالحق للسيد القبطان ليعاملني «أنا»، والمولود في فرنسا مثل معاملته لأبناء ولد آدم وعرقهم الملعون! فعليه ان يراجع الانجيل مرة ثانية. وعلى أية حال فان هذا الامر

ليس بغريب عليّ!».

الدكتور سترونگ ضحك بمودة وقال: «ان هذا هو السجن وهو يؤثر على أعصابك.» ثم هز رأسه وأضاف قائلاً: «خذ هذا الدواء، فانه سوف يريحك قليلاً».

وهكذا فقد تعاقبت الايام من دون أن يظهر هناك بريق من الامل أو ظهور أي شيء جديد في حياتنا. وبغض النظر عن زيارات سترونگ، فان التغييرات البسيطة بقيت هي الاخرى استثناءات نادرة، والتي كانت تغير بين الحين والحين احادية طريقة تناولنا للطعام. وكان على المرء ان يستلقي وهو في قيوده التي تكبله لكي يعرف قيمة قدح من العصير اللذيذ، أو قيمة قطعة صغيرة من لحم العجل. فالسجناء كانوا يدفعون الثمن بالاكتئاب واليأس.

وقد كان تجار الرقيق يبذلون القليل من الجهود، أو ربما الحد الادنى من الجهد، وذلك من أجل الابقاء على قوة الحياة لدى حمولتهم (العبيد). وهكذا فعلى سبيل المثال فان الطعام الذي كان يقدم يتألف من شوربة الاذرة لكي تقلل من الطعم المر للصويا. لكن ذلك لم يغير الكثير في تلك المسألة، فقد تعودت واثناء مدة اعتقالي على طعم ذلك الطعام. وعندما كانوا يضعون بعض القرنفل فوق الطعام والشوربة، فأن ذلك اليوم يعد عيداً بالنسبة لنا. ومثل بقية

تجار الرقيق الجيدين، فان انكليزنا ايضاً قاموا بمعرفة ان هذه التوابل تزيد من الشهية وتحد من حالات الاسهال. وبالمناسبة فانها لا تكلف كثيراً. ولغاية يومنا هذا لم ينكشف لاي من الحراس بأن احد زملائنا يقوم بشحذ ملعقته ليعمل منها سلاحاً خطيراً. وكانت قبضتها قد اصبحت حادة تماماً في غضون المدة المنصرمة. فهل كان ممكناً بان الدكتور لم يلحظ حقاً أي شيء في اثناء زياراته اليومية؟



سحر خبيث:

في احدى الاماسي توقف النسيم بنحو واضـح. وقد حشرنا انفسنا في وسط العنبر أمام أحـد الثقوب التي ينبعث منهـا الهواء. ولمـدة ثلاثـة ايام لم يهب الـريح. البحارة حاولوا الاستفادة من أقل هبة للريح، بيد أن ذلك

لم يكلل بنجاحات ملموسة. باريت أمر بجلد اثنـين من خدام السفينة. وهـذه العادة كـانت سائـدة منذ غـابر الازمـان. والمعروف من المـاضي بأن هـذا الامر يـلاقي استحسان آلهة البحر. لكن الالهة لم تكترث لذلك، وخدم السفينة لم ينبسوا ببنت شفـه من الالم. ثم بدأ طـاقم سفينة «كيلّارني» بالصفير لجلب الريح.. لكن الريح لم تكترث هي الاخرى ايضاً ولم تهب. وانقضت ساعات لا نهاية لها.

أما الحرارة في سجننا، فانها أصبحت لا تطاق. وفي «مقري» مات اثنان احدهما بعد الآخر. يضاف الى ذلك تلك الرائحة العفنة في السجن المكتض..! كم ان الامـر سيكون رائعاً ان تمكن المرء من التجول الآن في الحقول الخضر لساعات طوال، والتمدد على ضفاف أحد الانهار، وشم رائحة الماعز والاغنام، وملء خياشيم الانف بعبق أشجار وأوراق الخريف!

وقد تحدثت لقامبا عن كيفية قيامي في أبـرد فصول الشتاء بالتجوال في الغابـات وذلك من أجـل البحث عن اخشاب خاصة للموقد. وفي احدى السنين كان النهر كله قد تجمد، مما حدا بي للسير فوق ذلك الثلج الصقيـل. وكنت اسمع على مقربة مني عواء الذئـاب. لم يفهمني

ڤامبا. وطوال اكثر من ساعة حاولت افهامه وبكلمات بسيطة بعيدة عن المضمون العلمي وبجهد مضن بأن الصقيع والثلج هما من الامور المعهودة لدينا. لكن هذا الامر كان يفوق امكاناته الفكرية. وحتىٰ فانه كان يعد تلك الامور ضرباً من ضروب السحر. وأخيراً قال ڤامبا: «ان هذا الامر لا يخصني، وهو من الامور الخاصة بالبيض. فالاسود المسكين لا يفهم أي شيء عنه».

هذه الحالة لحظتها باستمرار لدىٰ ڤامبا والتي تعد اعتيادية لدىٰ العبيد الاعتياديين. وكانت نظرتي للحياة مختلفة تماماً عن تلك التي طرحها ڤامبا ويطرحها العبيد الآخرون. فقد أردت الحصول على حريتي والقيام بأعمال اعتيادية. فجسمي وعقلي كانا يطلبان اشياء مغايرة للبقية، وبعيدة عن روتين الحياة الاعتيادية. فالرياح والامواج والعواصف والبرق والقتال، كل هذه الامور كانت تغمر حياتي يومياً وبنحو متجدد. وهنا لم يحصل شيء من هذا القبيل ابداً، ولن يحصل أبداً في المستقبل. وكان بودي أن أقوم بالصراخ العالي جداً جراء اليأس الذي اصابني.

وقد اوضحت لڤامبا قائلاً: «سأصبح في أحد الايام سيداً كبيراً، سيداً محترماً! قبطاناً كبيراً يملك سفينة

فخمة..».

وقد كنت احلم بسفينة جديدة جميلة. كان بودي ان تكون سريعة ومزينة بالوان مختلفة. وان كل شيء فيها سيكون ملكي من الشباك ولفّات الحبال، وعلب القناني وجميع معدات التحميل، وحتىٰ عَلَم قياس سرعة الرياح. يضاف الى ذلك جميع المراسي، والمسامير، وحبال المراسي، والحبال الاخرىٰ من النوع الغليظ. كما ان سفينتي القادمة يجب أن تكون مجهزة بمدافع عددها اثنا عشر مدفعاً أو ثمانية عشر مدفعاً، وبودي لو يكون في مؤخرتها عشرة مدافع اخرىٰ أيضاً. والاحلام هي ليست بالفن! فالحلم هو ملاذ الضعفاء أو هو وسيلة من بطالة الملعونين. وعلى الرغم من ذلك فانا لم افقد أية امنية من امنياتي الملحة تلك. فالطموح كان هو دافعي.

ومن أجل الخروج من حالتي المأساوية التي وجدت نفسي فيها كقرصان، كان عليّ ان امتلك ولو القدر البسيط من التعليم المدرسي الذي يمتلكه الآخرون. والشيء الذي تعلمته وأنا فلاح بسيط كان قليلاً ولا يكفي إلا لرعي البقر في مدينة نورماندي فقط. والان فقط اندم لكوني لم استفد من المدام (روماني) على سطح الباخرة التي أقلتني من فرنسا، والتي كانت ستعطينا أنا وايزابيلا بعض الدروس

التعليمية. والان فقد فات الاوان.

وفي اليوم الثامن لهدوء الريح قامت اثنتا عشرة امرأة من العبيدبالقاء أنفسهن في الماء وهن يمسكن أياديهن الواحدة بالاخرى. وقد سبق لأطفالهن ان فارقوا الحياة جراء الحرارة في السجن الضيق الذي حشر فيه البنات مع الشباب. هذه الحادثة خلقت نوعاً من الاضطراب على ظهر السفينة. ومن أجل طرد فكرة الانتحار من رأس «حمولته»، قام القبطان باريت بالسماح للعبيد بالرقص مدة ساعتين بدلاً من الواحدة على ظهر السفينة. وقد استغليت هذا التغيير الذي شوش السياق اليومي على السطح للتقرب من ساريل، وتمكنت حتى من التحدث بصوت واطىء معه وقلت: «إني بصدد الاعداد لعصيان بوساطة ملاعق طعامنا..».

«اعرف ذلك، وان جميع العبيد هم جاهزون للتنفيذ. وهم بانتظار الاشارة. هذه الاشارة يجب أن تأتي من عندك!».

«نعم، وعلينا اختيار اللحظة المناسبة، وانتظار الفرصة الجيدة».

«ان خطتك مجنونة، ولا يمكن أن نحقق بوساطتها شيئاً. وقد سمعت أنا..».

ثم صمت. اذ كان البحار (سيفورت) قد شاهدنا نتحدث معاً. وقد حضر الينا فوراً وهددنا ببندقيته. وكان علينا الافتراق ثانية. «قل لآيزن آرم وعصفور الشؤم، وآين اوكة (الاعور) وايڤز أن يستعدوا واخبرهم بالخطة المزمعة». همست باذن ساريل عندما هممت بالوقوف تاركاً الارض. ثم أضفت قائلاً: «يجب علينا أن نتهيأ اكثر».

ـ «أقول لك بالتأكيد ان الامر الذي تفكر فيه حماقة. فكف عنه!».

ـ «لا تكن سخيفاً! واخبر الآخرين بمضمون خطتنا!».

ـ «سوف نرى..».

ثم انصرف ساريل. وقد بدا لي كأنه قد تغير تماماً. ولم أعرفه بوضعه المتردّد والضعيف أبداً مثلما أراه الآن. ولكن في تلك اللحظة لم أعر الموقف المرتبك لصديقي اهتماماً كبيراً.

وانقضت ثمانية ايام اخرى. ولم تهب الريح أيضاً. وبدت السفينة وكأنها مسمرّة على سطح الماء. وقد بقيت واقفة بلا حركة على البقعة نفسها من المياه. البحر كان يمتد حولنا كالمرآة الصقيلة وحتى بلا موجة واحدة تعكر صفو تلك المرآة. وعلى بعد أميال قليلة منا تدحرجت

الامواج كعادتها السابقة. أشرعتنا كانت لم تزل غير منتفخة. الدكتور سترونگ قال في أثناء زيارته الدورية لسجننا:

«ان هذا امر لا يكاد يصدق، وان باريت قلق جداً، ويعتقد بأن الاحتيال قد دخل اللعبة».

«اتقصد السحر؟».

«نعم، تماماً. وأنا لا اعتقد بشيء أبداً من هذه الاقاويل الغبية. ولكنك تعرف طبيعة رجال البحر. فكل شيء غير واضح ومفهوم، او لا يمكن ايضاحه وفق التقاليد السائدة، فهو حسب وجهة نظرهم سحرٌ. أما الآن، فان المسألة سوف لا تستمر هكذا للأبد. ماعدا..».

- «ما عدا ماذا؟».

وقد تردد قبل أن يسرني بان القبطان يريد الانتظار الى اليوم التالي وقال: «ان لم يتغير الطقس لغاية الليلة القادمة، فانه يروم انزال القوارب الثلاثة مع العبيد الى الماء.. ويجب اخراج «كيلّارني» من منطقة الطقس غير المرغوب هذه. ولم أبدِ في الواقع معارضة لذلك. والخسائر تزداد بنحو مقلق، لاسيما بين الاطفال».

كان التعب بادياً على وجه سترونگ. وكان يسحب نفسه وهو على أطرافه الاربعة لغاية وصوله الى عنبرنا،

وذلك لكي يخرج ثانية الى الهواء النقي. وقبل أن يغادرنا، قام بالغمز بعينه لي ثانية. وكانت حالته مثيرة للقلق. وبقيت الامور على حالها في الليل. وفي صبيحة اليوم التالي تم احضار ثلاثين عبداً الى سطح السفينة. وتمكنت ان استنتج من الاوامر التي طرقت سمعي بأن القوارب الثلاثة سيتم انزالها الى الماء. وكان سترونگ اذن محقاً في طرحه للامور.

وبعد نصف ساعة لمست حركات للسفينة يكاد لا يميزها الا البحار، وبأن «كيلّارني» بدأت تتحرك ببطء تاركة المنطقة التي كنا فيها. وقد تمنيت لو كان قد تم ارسالي مع اولئك السجناء الذين قاموا بالتجذيف لاخراج السفينة. وربما كنت سأنال فرصة ملائمة.. لكن باريت كان غير واثق. ولم يكن التحالف مع القراصنة من الامور الجيدة، وحتىٰ في حالة التجذيف، وعلى المرء ان لا يخلق مصاعب غير ضرورية للطاقم.

الرجال.. الرجال...

«اللعنة، يجب علينا الآن ان نضرب ياقامبا!».

«البحارة يتولون القيادة على ظهر الانقاذ، وذلك يعني ستة رجال مسلحين اقل على ظهر سفينتنا!».

«صحيح، ولكن..».

«ولكن ماذا ياڤامبا؟».

«بخلاف المعتاد في هذا الوقت من اليوم، فان القبطان قام باقفال العنبر». وفعلا فان العنبر كان مقفلاً من الخارج وباحكام. وعندما كان يتم ابعاد الاقفال الحديدية الكبيرة، كان ذلك الامر يتم بحضور أحد الحراس المسلحين.

بعدها قمت بحك شعر رأسي بغضب. والرجال في قوارب الانقاذ حاولوا مدة ثلاث ساعات للقيام بسحبنا. بعدها توجب ان يوقف القبطان خطته تلك لفشلها. فسكون الريح وحسبما يبدو كان قد انتقل مع حركات كيلّارني. وقد ارتطمت أصوات القبطان الغاضبة ولعنات الطاقم باذ اننا في الطابق الاوسطللسفينة. وقد تمت اعادة الاصفاد الى أيادي السجناء الثلاثين من العبيد ثانية وكانوا منهكين تماماً.

قام ڤامبا بالتحدث اليهم ثم أخبرني بما حصل قائلاً: «انهن النساء السبب في ذلك كله».

«نساء الرقيق؟».

«نعم، ولدينا الكثير منهن على ظهر السفينة، ممن يفهمن في فن السحر».

«ثم ماذا؟».

«لقد قمن بايقاف الرياح!».

«هذا لا يمكن أن يحصل أبداً!».

«بالتأكيد، وانك لا تصدق ما يستطعن القيام به. وقد قمن بسحر البحر والسماء وذلك للانتقام للاطفال الذين ماتوا. وباريت لا يستطيع عمل أي شيء مقابل ذلك ابداً».

«ولكن ان لم نخرج من هنا، فان الماء سيشح لدينا. والطبيب قال بأن الاطفال..».

«أنا أعرف، ولكن قرار النسوة قد وقع. وهكذا فان معاناة الاطفال أصبحت اقصر وقتاً».

وبحيرة وريبة نظرت اليه. وكان امراً لا يصدق قيام شخص ما بفرض ارادته. وهذا الامر لم اود تقبله وبكل بساطة. ولكن بالتأكيد صح ذلك.. فبعد يومين سمعنا صياحاً على سطح السفينة.

وبسرعة كبيرة وتحت قعقعة السلاسل تم صعودنا الى ظهر السفينة. فالجواسيس كانوا قد كشفوا الامر. وقاموا باتهام نساء (سحر الهواء). اثر ذلك قرر القبطان باريت ان يضرب مثلاً باحداهن. لذلك قاموا بربط احدى النساء بمدفع من المدافع لجلدها بالسوط.

«كانت تلك هي آميمبا، وتعد من أحسن الساحرات. فان كانت تريد، فان السفينة سوف لا تتحرك من مكانها

أبداً.

احد الحراس المسلحين قام بتلاوة القرار ـ ٢٥ جلدة ـ وعلىٰ أحد البحارة أن ينفذ القرار. لكن آميمبا لم تطلق حتىٰ صيحة واحدة. ومن الواضح فانها لم تشعر بالسياط وهي تنهال عليها. وعندما شاهد سترونگ ذلك، قام هو بنفسه بتوجيه بعض اللطمات المحددة اليها. بعدها بدأت بتوجيه الشتائم الى سترونگ والبحار الذي كان يجلدها.

السجناء قربي بدأوا يدمدمون بكلمات غير مفهومة تدل على عدم الرضا.

«ماذا قالت؟» سألت أنا ڤامبا.

تردّد قليلاً قبل أن يرد عليّ بالقول: «قالت للبحار بانها ستقوم بأكل كبده وقلبه».

«وماذا قالت لسترونگ».

«الشيء نفسه».

«هي غاضبة طبعاً. ولكنها تقول كلاماً مثل هذا فقط بسبب..».

«كلا. لقد أخبرت الطبيب بانه سيموت في غضون يومين.».

وفي صباح اليوم التالي لم يحضر سترونگ لاجراء

زيارات المرضىٰ. والسبب كان لمرضه. وفي اليوم الذي تلاه توفي الطبيب.

انتشرت تلك الاشاعة في السفينة بسرعة الرياح. أما المرضىٰ فانهم يئسوا لأن سترونگ كان الرجل الوحيد على ظهر السفينة الذي بامكانه معالجتهم. ثم سمعنا صيحات تنبعث من قطاعات اقامة النساء. بعدها ساد سكون ولف محيط سفينة «كيلاّرني».

كنت افكر دائماً بطبيب سفينتنا وباستمرار. فضلاً عن انه انسان طيب. وكان قد كسب مودتي وعمل ما باستطاعته لخدمة السجناء ولتحلية الحياة بالنسبة لي على ظهر سفينة كيلاّرني. والشيء الذي خدمني فيه اكثر هو تعلمي منه بعض المقاطع المهمة من مهنة الطب. ولم يستطع حماية نفسه بوساطة الفن الذي كان يتقنه. ولم نعلم ان كان صحيحاً بأن آميمبا هي التي قتلته؟ فهذا امر يصعب تصديقه. ولم أرغب في تصديق اقاويل (ڤامبا) لكن الدكتور سترونگ كان يبدو تعباً جداً في أيامه الاخيرة. كانت تلك الامور جميعا خطيئة خالصة. وفي مدة السجن فقط تحصل امور كهذه.

كان الوقت يشير الى الساعة الرابعة عصراً عندما علمنا بان البحار الذي قام بجلد الساحرة ولعنته قد مات

فجأة. نظرت الى قامبا. وبلمحة أشار اليّ بأن كل ايضاحاته كانت صحيحة وتحققت مثلما قالها لي. شعرت بيأس شديد قد افترس جثته في المدة المنصرمة. علماً بأن اسماك القرش كانت تلازم سفينتنا باستمرار.

وامر القبطان بفتح جثتي الرجلين والتي قالت لهما الساحرة بانها ستأكل كبديهما وقلبيهما. والشيء الذي اكتشفه البحارة لاحقاً، بدا غير ممكن تصديقه في الواقع بالنسبة لي. فكبد وقلب الاثنين كانا مجوفين وظهرا مثل البالون ومظهرهما الخارجي مثل الجلد الذابل، لذا فلم يكن بدٌ من اغراق آميمبا مثقلة بالحديد في البحر. وبعد يومين نشطت حركة الريح الخفيفة. وبقيت تلك النسائم خفيفة وكان من الافضل لنا هبوب الريح من اتجاه آخر، بيد ان (كيلّارني) اخذت مسارها الاعتيادي أخيراً. ولم استطع اخراج سترونگ من بالي وكنت اتذكره باستمرار. ومن أجل التخلص من تلك الافكار، قمت بتذكر ألذ الاشياء الممتعة واكثرها جنوناً. وكانت هذه الامور تبعدني مدة وجيزة عن الافكار المؤلمة التي كانت تلاحقني.

وعلى ظهر سفينة كيلّارني تعودت على بعض العادات الغريبة تماما. وهكذا فقد كنت انظر الى الناس الذين

يتحدثون معي وبالذات في عينهم اليسرى. وحيث ان صديقي قامبا كان يستلقي الى جهة اليسار وكنت اتوجه بنظري اليه نحو اليسار، فقد تعودت امالة رأسي قليلاً الى جهة اليمين. لذلك فقد كنت انظر فقط الى جهة الوجه اليسرى للناس الواقفين أمامي. وبعض تلك الصفات تعد طبيعية لنزلاء السجون. وقد حاولت أنا نسيان تلك العادات في الاقل أو تجاوزها. كما قمت بابعاد امكانات الحلم التي كانت تراودني كذلك قمت بالتفكير حول جميع الحالات الصعبة المحتملة آلاف المرات وكيفية الخروج منها. وربما يكون من الممكن ان يشتريني أحد الزراع في ميناء پورت - رويال وتدخل محبتي في قلبه لتقوم زوجته بتدليلي بالحلويات. أو ربما اقع تحت سياط أحد السادة المالكين لاعمل له اكثر من (١٨) ساعة يومياً في أحد معامل السكر التابعة له. واخيراً فان خيالاتي كلها أصبحت تؤرقني، لانها لم تكن تطابق الواقع. ماعدا ذلك، فمن هو الذي يعلم ماسيلاقيه غدا؟ وفي اليوم التالي لوفاة سترونگ ارسل القبطان بطلبي لمقابلته.. ولم اتوصل الى سر الامر الذي طلبني من أجله القبطان وحتى في أشجع احلامي.



طبيب العبيد:

ـ «ها هو القرصان الشاب! وانك لتبدو بأحسن صحة وعافية!».

ـ «هذا أمر جيد، وسفينتنا سفينة ممتازة. نعم، سفينة جيدة، وبحر جيد، وعبيد جيدون!».

القبطان كان منشرحاً تماماً، وبدت زيارتي مفرحة بالنسبة له. فماذا كان يخبىء لي خلفها؟ وماذا كان يعتزم؟ كان عليّ أن أعلم ذلك بوقت قصير.

ثم بادر القبطان بالسؤال: «ماذا تشرب، وسكي؟».

ـ «كلا ياقبطان، على البحر أبداً!».

ـ «آه، نعم، وهذا هو إلتزام القراصنة، أليس كذلك؟».

ثم ضحك بسخرية وقال: «اني اجد الالتزام شيئاً جيداً. والآن يالينورماندي..».

ـ «اسمي لينورماند ياقبطان».

ـ «نعم، لينورماندي.».

ـ «كلا، لي ـ نور ـ ماند».

ـ «نعم، نعم، لينورماندي. أهكذا صحيح»؟

وكان عليَّ أن اوافقه. القبطان باريت كان ثقيل الدم جداً. ماعدا ذلك فان الامر كان يتعلق بما هو أهم. ولم أقم بمقاطعته في حديثه اكثر.

«اذن، أيها القرصان، أود أن اخبرك شيئاً. شيء ليس مهماً جداً. فقبل وفاته تحدث لي سترونگ عنك، وقال..»

عندها بدأت الافكار تتزاحم في رأسي. شيء ليس مهماً جداً؟ نكتة انكليزية نموذجية. وبالطبع فان الدكتور سترونگ كان قد لحظ تعاطفي مع العبيد، كذلك فان

الاطراف الحادة للملاعق لم يغفلها هو حتماً. وقبل أن يتوفى، فقد قام بالتحدث بذلك الخصوص مع القبطان باريت. فلماذا قام هو بعمل ذلك؟

ـ «لكنك لا تسمعني ياقرصان!».

ـ «بالطبع، بالطبع ياقبطان!».

«حسن، اذن فان سترونگ قال لي: «عندما أموت، فلن يكون عندك طبيب للسفينة. وعلى سطح السفينة هناك شخص واحد فقط من الذين ممكن ان يتسلموا مهمتي». وعندما سألت الشخص المشارف على الموت عمن يكون هو، أجاب: «لينورماندي».

«لقد قالها هو؟» سألت أنا باندهاش.

ـ «نعم، لقد قالها حقيقة.».

ـ «ولكني لست طبيباً ياقبطان! بالتأكيد لا! إطلاقاً لا!

«النظام يالينورماندي! عندما يقول سترونك بأنك تقدر، فذلك يعني انك تقدر. أوليس كذلك؟ اذن..»

«كلا، كلا! ان الدكتور سترونك كان يستلطفني. وربما قام هو بذكر اسمي قبل وقت قصير من وفاته، أو فكر بي في ذلك الحين!»

«لم يكن الامر هكذا يانورماندي. لقد قال ان بامكانك ان تصبح طبيباً للسفينة مثله تماماً».

الآن كنت واقفاً هناك. وكان عليَّ ان اتسلّم مهمة لم اكن متهيأً لها اطلاقاً، ولم يكن بامكاني السيطرة عليها تماماً. فهل كنت أنا طبيباً في يوم ما؟ أنا لم اكن حتىٰ حلاقاً في حياتي! وفي الحقيقة فاني عشت مغامرات عديدة، وسافرت كثيراً، فضلاً عن قيامي بالتفكير الكثير. وهكذا فقد حصلت على حد معين من الذكاء. لكني لم امتلك بأي حال معلومات صحيحة. وبالطبع فقد كان عندي الكثير من الارادة الجيدة، بيد أن ذلك لم يكن كافياً لمهمة صعبة مثل هذه. واني احتاج الى الحظ، والكثير من الحظ.

باريت كان يضحك باستمرار. وقام بتقطيب جبينه، وكأنه يريد أن يتذكر شيئاً معيناً ثم قال: «سترونگ قال: بلا مواد طبية لا يستطيع حتىٰ أحسن الاطباء أن يعمل أي شيء». وهذا صحيح، فقد قال لي بضرورة تسليمك حقيبته.

ومن احدىٰ زوايا قمرته قام بجلب الحقيبة الجلدية السوداء، التي كان يحملها سترونگ دائماً معه. وكنت أعلم تقريباً ما فيها من مواد، اذ لم يكن فيها الكثير.

«ان العلاجات الطبية الموجودة في الحقيبة أعرفها أنا. كما أعرف أيضاً متىٰ يتم استعمالها. والعبيد لديهم تقريباً الامراض نفسها، تماماً مثل البحارة. وأعتقد

بـامكانيـة قيامي بمسـاعدة البعض منهم». قلت ذلـك موضحاً. وعلى عكس باريت تفحصت مهمتي الجـديدة بمزيج تام من المشاعر. وقمت بمغادرة قمرة القبطان. وفي الحقيبة السوداء وجدت ورقة مطوية طيتين. أخرجتها من الحقيبة وعرفت خط سترونگ. بدأ قلبي ينبض سريعاً، إذ كانت هذه الرسالة موجهة اليَّ:

صديقي العزيز:

أنا أشعر بأن نهايتي قـد اقتربت. وحتىٰ بفن الطب الذي عندي لا استطيع عمل شيء ضد هذا! الامر. وحتىٰ الطبيب فان عليه أن يودع الحياة يـوماً، عنـدما تحـين ساعته. ومعرفتي باستطاعتك أن تحل محلي لدىٰ المرضىٰ على ظهر سفينة كيلّارني، يهوّن عليّ أمر مغادرتها نهائياً. وقد قمت برجاء القبطان ليقوم بتسليمك وظيفتي. فهو لا يودّك تماماً، ولكنه وافق عـلى الموضـوع. واخيراً فـان الموضوع يخصه هو ذاتياً..

وللاسف فان نهايتي كانت سريعـة جداً، لكي أقـوم باعطائـك سبل كيفيـة معالجـة وتمييز أمـراض العبيد والبحارة. لكن حتىٰ الحياة باكملها لا تستوعب هذا الامر. وعليك أن تعرف أيضاً بأن الاطباء جميعاً ـ وأنت لست طبيباً ـ عليهم أن يتعاملوا تعاملاً انسانياً عندما لا يكفي

العلاج مع المرضىٰ. وأنا أعرفك من هذا الصنف. اذن ضع كل ثقة «القرصان» في ذلك اليوم عنـد جميع الحـالات الصعبة، وحسبما يقـول باريت بـاستمرار. وعليـك أن تخفي على أية حال جميع حالاتِ التردّد أمام مرضاك.

شيء آخر: عندما تقوم بعلاج شخص ما لا تعرف أنت مرضه، أو أن ذلك المرض يقود حتماً الى الموت، فانك لا تستطيع عمل شيء له. لذلك عليك ان تفعل مثلما أفعل أنا. ناوله قليلاً من العلاج الموضوع في القنينة المرسومة عليها علامة صليب. فالعلاج الذي فيها هو ملح اعتيادي تماماً فيه رائحة خفيفة، ومصبوغ قليلاً، وهو ليس خطراً أبداً. وهذه الرعاية سوف تشغل بال المريض، الامر الذي يكفي لتحسين وضعه بنحو بسيط. وباعادة هذا العلاج، يكون مفعوله ربما منقذاً للحياة، وبالذات عندمـا يتم اعطاؤه بدفء انساني وحنان. اذن اعتمد عليك.. وسوف تستفيد من حقيبتي في اثناء زيارتك للمرضىٰ، وفي تنفيذ خططك. فالادوات سيكون بامكانك استعمالهـا جيداً..! وكلمـة اخيرة: رجوت القبطان الموافقة على فتح وتشريح جثتي بعـد الموت لكي تعلم سبب مـوتي. وذلك سيـوسع من معلوماتك الطبية. الوداع ياصديقي! وحظاً وافراً!

التوقيع: سترونگ

منذ أيام والجوع يعذبني. وكان جسدي الضعيف يطالب بأكل دسم مثل الفاصوليا، والخضار، والرز الكثير مع الصلصة وزيت الزيتون. وفي بعض الاحيان كنت أحلم ليالي طوال بالجبن السويسري أو الهولندي. وكنت اتصور باستمرار الاشياء التي كانت تقدم لطاقم السفينة: بنظري طعام احتفالات بجد. والبحارة الذين كانوا على سفن العبيد بين جزر الانتيل وغينيا، كان يعطىٰ لهم لحم العجل ثلاث مرات اسبوعياً. الوجبات الاخرىٰ كانت تتألف من خضروات مطبوخة بالدهن أو الزيت. ماعدا ذلك كان الطعام يتضمن لحم البقر.

«وماذا كان البحارة يأكلون على ظهر سفينة (كيلّارني)؟».

كان يبدو لنا في الغالب ـ نحن الفرنسيين ـ وكأن هؤلاء البريطانيين قد قدموا من كوكب آخر. وكانت ردود فعلهم وعاداتهم تبدو غريبة لنا، نعم وغير مألوفة أيضاً. ولم ابذل ادنىٰ جهد من أجل فهم تلك الامور لديهم.

وقد تصورت بأنهم لم يأكلوا اللحم منذ أسابيع، لأني لم أشم رائحة أبقار على السفينة.

وربما سأقوم من الآن فصاعدا بنسيان جوعي، لأن واجبي الجديد سيأخذ الكثير من وقتي. وهذا يجب أن لا

يمنعني من استمرار التفكير بخطة الهرب. بل العكس! إذ يوجد الكثير من الفرص أمامي الان كطبيب للسفينة. ألم يقم سترونگ بتشجيعي في رسالته؟ ألم يقم بتمني الحظ السعيد لي؟ وبالتأكيد فانه هو الذي اقترح على باريت لأصبح طبيباً جديداً للسفينة، لأنه اراد مساعدتي في تحرير العبيد عندما قال:

«وسوف تكون حقيبتي مصدر عون لك لدىٰ تنفيذ الخطة. والادوات التي فيها ستتمكن من استخدامها جيداً..» وكان ذلك امراً واضحاً. وقد أراد الطبيب سترونك انجاح خطتي التي اطلع هو عليها منذ البداية.. وهذا أمرٌ لا اشك فيه اطلاقا. وأنا، الذي تصورت اول الامر انه قام بخيانتي! فهذا امر لا اغفره لنفسي.

لذا فقد بدأت بزياراتي للعنابر الوسطىٰ في السفينة، والتي لم أكن أعرفها سابقاً. وقد أردت البدء بالسجناء، الذين لم تكن بعد معرفتهم بي وطيدة. هذا الامر كان سيبسط لي الامور أكثر، قلت ذلك لنفسي. وربما يكون ترددي لدىٰ هؤلاء غير مكشوف تماماً. أما (ڤامبا) فانه قام بالترجمة لي مع المرضىٰ وبلغتهم. وباريت قام بتزويدنا بحارس معنا. وكان الحارس مع علامته التي يحملها هي مرافقنا المستمر.

«سازودك بحارس لحمايتك من العبيد. ويجب عليك أن تكون حذراً وباستمرار!» قال لي ذلك القبطان باريت. وكانت عدم ثقة الحارس تعيقنا بنحو ملموس في تشجيع السجناء واعطائهم التعليمات. فكيف يجب علينا ترتيب هذا الموضوع؟ وعلى الرغم من كل ذلك فقد تمكنا تدريجياً من اقناع الحارس بعملنا وان نهدىء من قلقه قليلاً.

وكان مريضي الاول قد انتابته حالة من الصرع. وكان ذا قامة مديدة ومنكب عريض وصدر ضخم وعينين عميقتين تحت جبهة قصيرة.. وقد بدا شكله مثل المجانين. حتى ان تجار الرقيق ربما سيتوهمون به، لأن مرضه ربما لن يكشف بين الاعداد الكبيرة للعبيد. فرجل كهذا غير قابل للبيع. إذ لا يوجد أي من الزراعين راغب لتحمل هكذا ثقل مرضي.

سترونگ تحدث معي بخصوصه مرات عديدة وأوضح لي أيضاً كيفية علاج مرضه. وكان القبطان باريت قد قرر سابقاً اعدامه عند اول فرصة وذلك لارعاب العبيد الثائرين. فقد أصبح «كبش الفداء».. وعندما وصلت اليه، قام الرجل بالضرب حوله بقيوده الحديدية. كذلك فانه دار وتدحرج على الارض بعينين مقلوبتين والـزَبَدْ يتطاير من شفتيه. السجناء الآخرون كانوا قد ابتعدوا

عنه، لكي يخلصوا من العض الذي قد يتعرضون له من قبله.

«نحتاج الى حبل من أجل تثبيت حركته»، قلت ذلك للحارس وأضفت: «إن بقي مضطرباً هكذا فلن أستطيع معالجته». وعندما ذهب الحارس لتلبية طلبي، تمكن ثامبا من التحدث مع السجناء بحرية تامة، ومن اولئك الذين كنا نعرفهم عن بعد أثناء تمشينا على سطح السفينة. وكان يشير اليّ بين الحين والحين، والسجناء ينقلون انظارهم نحوي ويتطلعون اليّ بدهشة واعجاب تامين، ويعلّقون آمالاً كبرى عليّ.

بعدها رجوت (ثامبا) أن يقول لهم: «لا تعلقوا جميع آمالكم عليّ وحدي فقط. ولكن عندما تكون عندكم الشجاعة الكافية ستحررون أنفسكم».

ردّ ثامبا بقوله: «الشجاعة عندهم. وهم جاهزون للقتال ويريدون أن يعرفوا، ان كان ذلك سيحصل قريباً!».

- «لا أعرف ياثامبا. وعلينا أن ننتظر فرصة ملائمة».

- «حسن سأقول لهم ذلك».

وكانت لدي فرص كثيرة على ظهر سفينة (أنجليز) لتدريب نفسي بصبر كامل. وبذلك الصدد أحرزت

اكتشافاً مهماً، ألا وهو ان الحرية ليست شيئـاً يسيراً والحصول عليها ليس مثل الحصول على الماء أو الغذاء. ونحن لا نأخذ الحرية كهدية، وإنما علينا الحصول عليها بجهد جهيد.

وعندما تم ربط الرجل الضخم المريض، بدأ بالنباح. وقد أوضح لي (ڤامبا) ان هذا الشخص سبق أن عضه كلب مسعور وهو صغير. وبعد جهود مضنية تمكنت من اعطائه دواء معيناً سبق أن حدّده لي الدكتور سترونگ. وكانت تعاوده النوبة مما يضطرني لتجديد الجرعة اليه. حتى بدأت حالته الصحية تتحسن تدريجياً بعد مدة. ولم يتمرغ أكثر على الارض. وأصبح نباحه أقل ايضاً، لكنه بدأ بعد ذلك بالعواء مثل الكلب تماماً.

ثم امرت الحارس قائلاً: «عندما ينـام يجب أن يُفَكَّ وثاقه!» ثم قام بابداء مقاومة بيديه مما يدلل على انه لم يزل خطيراً! وفجأة توقف المريض عن العواء ليموء مثل الجرو الصغير. وقام بلعق يدي مثل الحيوان الصغير الذي يربت على كتفه وتمسيده. قمت بعدها بالزحف على الاربع مع ڤامبا والحارس الى خارج العنبر. المنطقة التالية التي قمنا بزيارتها كانت زاوية مخفية على مقدمة السفينة وكـان سقفها واطئاً تماماً. وكان وضع السجناء هنا اكثر سوءاً

من الاخرين.

اوضح لي ڤامبا قائلاً: «ان هؤلاء من قبيلة إيبوس، وفي احدى المرات تحدثت لك عنه».

تذكرت استعدادهم للانتحار وطلبت من ڤامبا أن يقوم بتشجيعهم على نحو خاص. وكنت قد حضرت الى العنبر بسبب أحـد الاشخاص الـذين كانت حـالته الصحيـة ميئوس منها. وكان مستلقياً على جهة، ولسانه متيبسـاً ومتورماً، وأسنانه تظهر طبقة سوداء فوقها، والبقع تغطي جلده المترهل الرطب. وقد قمت بجس نبضه باديء الامر وكـان بطيئاً، وجسمـه يتقد من الحمى. وبـدأ المريض بالتنهد قليلاً ويدير رأسه جراء الألم من جانب الى آخر. وقام بتحريك شفتيه ببطء، ونَفَسهُ يبعث رائحة غير طيبة. وكان لون وجهه مصبوغاً باللون الرصاصي الداكن. ومن وقت لآخر كان جسده يرتجف كالصدمة، ومجمل الكلام فانه كان مستلقياً وكأنه فاقد الوعي.

ثم قلت لڤامبا: «انها حمى السجن وانا لا استطيع أن اقدم له شيئاً».

«اذن سيكون حراً في وقت قريب!».

ثم تنهدت. وبالطبع فانه سيكون حراً في وقت قريب، وليس سجيناً، وجائعاً، ومريضاً وتهزه موجات الخوف.

وفي نظر عبيد سفينة «كيلّارني» فـان الحريـة لا يمكن الـوصول اليهـا إلا عبر طـريق الموت. ثم قمت بـاخبار القبطان باريت عن الموضوع. وبسبب امكانية العدوىٰ وخطرها، تم وضع الرجل الفاقد للحياة تقريباً في قارب النجاة، والذي كان على سطح السفينة. أما طاقم السفينة فانهم وقفوا على مسافة بعيدة منه. البحار سيفورت وجه لي سؤالاً: «هل نعطيه بعض الطعام؟».

«كلا، ان ذلك ليس مهماً الآن!» ثم سرت بعدها بحزن نحو مؤخرة السفينة. وفي الماء كانت أسماك القرش تنتظر بفارغ الصبر. وقامت باتبـاع سفينتنا أميـالاً واميالاً. وكلما طال أمد الرحلة، قام البحارة بالقاء جثث من على سطح السفينة الى الماء. وسمك القرش يعرف رائحة سفن العبيد. ويبدو انه يعرف أيضاً بأن العبيد يقتلون أنفسهم في بعض الأحيان أيضاً، وذلك بوساطة قفزهم من السفينة الى الماء، مثلما عمل اتباع قبيلة الـ (إيبوس) وقفزهم الى الماء من مقدمة السفينة.



تسع وثلاثون ضربة سوط:

بورگة أخبرني في أحد الأيام بعد الظهر: «غداً هو يوم غسل الرأس والشعر. ولا توجـد زيارات للمـرضى قبل الظهيرة».

وحالاً قمت باخبار ثامبا بالامر. وكنا قد قمنا بجولات لتأهيل واعداد السجناء لتنفيذ خطتنا في العصيان. والآن

يسود جو من التوتر في قطاعات السفينة. وكانت الثورة هي أملهم الوحيد الذي ينتظرونه. ولم يكن بمقدوري منعهم عن ذلك الامر اكثر. ماعدا ذلك فان وضعهم الجسمي كان سيئاً. وكل يوم يمر عليهم، كان يضيف سوءاً اكثر لحالتهم الجسمانية والصحية. فالزمن اذن ليس لصالحنا.

ثم قلت لقامبا: «غداً اذن. اعط التعليمات لرجالك، وأنا سأقوم بالتحدث مع زملائي».

«والحراس»؟

تردّدت قليلاً قبل أن اقترح: «اليوم مساءاً ولدى الرقص تعطي الاشارة ليوم غد، وعند الغناء تقوم بتحذير الحراس بأن الساحرات يمكن أن يقمن بقتلهم عند قيامهم بالتصدي لنا. والامر مثلما حصل مع سترونك، إذ تم أكل قلبه وكبده من قبلهن».

ـ «أتفقنا!«.

كانت الشمس ماتزال في السماء تقريباً. وحسب المعتاد فقد انقسم السجناء الى صفين، وبدأت الموسيقى. ثم بدأت أرداف الراقصين بالاهتزاز وفق ايقاع خاص، وأرجلهم بدأت تدق الارض وفق وزن معين. ثم علت بعدها أصوات اغنية مرتبة، والايادي السود كانت تصفق.

وصوت الغناء بدأ بالصعود، وأصبح عالياً اكثر واكثر. وكانت ترافق أصوات الغناء صيحات حادة. وأنتابت الراقصين حالة غضب شديدة.

كنت أجلس في الصف الاول للمتفرجين وحاولت التفاهم مع ساريل الذي كان يجلس بعيداً عني بوساطة اشارات. وقمت بدعك رأسي لافهمه بأن يوم غد هو «لغسل الرأس». وبوساطة ايماءة حذرة برأسه أظهر لي بأنه قد فهم الاشارة. أما آيزن آرم فان نظرة واحدة كانت تكفيه لأنه كان مستعدا. وهياج العبيد وصل في تلك الامسية الى درجة لم تصل درجة الغليان الكامل. وكان القبطان باريت قانعاً جداً. وبضحكة عريضة دعاني اليه وقال: «الحمولة في وضع جيد!».

ومن أجل القضاء على أي شك في مهده، سايرته في الحديث وأجبته مثلما كان يتوقع قائلاً: «نعم، ياقبطان، كما تقول».

«حسن، وهذا أمر جيد، وأنا راض عنك».

اضافة الى ذلك حاولت ابعاده عن معرفة اغراضي تماماً، لذلك قلت له: «قد سبق أن أوضح لي سترونگ بأن الدين والموسيقى هي من الاشياء الجيدة لعلاج الضجر لدى السود. ويبدو أن لديه الحق في ذلك. فالرقص يجلب

لهم السرور ويبقيهم في حالة جيدة».

ـ «نعم، هذا امر جيد، وسترونگ كان طبيباً جيداً!».

بعدها انسحب القبطان الى قمرته لتناول كأس من الويسكي. بعد الرقص قام البحارة بحشرنا ثانية في العنبر الأسفل، في سجننا. وقبل نزولي السلّم الى الأسفل كنت أبحث عن نظرات ساريل. وكانت انظاره متجهة الى ناحية اخرى. وتوجّب عليّ مرة اخرى ان اتنفس هواء السجن الفاسد. وحيث ان هذه كانت ستكون المرة الاخيرة لنزولي الى السجن، فان الامر بدا محتملاً اكثر.

تمدد ڤامبا قربي على الارض. وكان قد سبح بالعرق جراء الرقص والغناء وأنفاسه مقطوعة تماماً. وقد أبديت اعجابي له ولحالة الحماس في الرقص والغناء التي سببها للآخرين على سطح السفينة. وكان يصمت باستمرار ويحدّق بنقطة غير مرئية تماماً فوق رأسه. بعدها قال من دون أن ينظر اليّ: «نعم، قمت بالغناء والرقص، ولكن ليس جراء الفرح والسعادة..».

ـ «كلا..؟ ولكنها كانت....!».

ـ «هل رأيت وجوه الرجال؟».

ـ «نعم، لقد بدوا فرحين، وردّدوا ما كنت تقوله لهم. وأعادوا ايقاعات الرقص التي أديتها امامهم كذلك».

ـ «اسمع اذن! لقد قلت لهم في اغنيتي، بأن عبقرية الله موجودة فيك، وبأن الله ينادي جميع العبيد للثورة من خلالي وخلالك، وبأن عليهم الاستعداد للقتال الكبير، وبأن جميع الذين سيفقدون حياتهم أثناء ذلك ستعاد خليقتهم في أحضان قبائلهم مرة ثانية وبذلك يتم انقاذهم. وقد صدقني الجميع، السبب الذي جعل الجميع سعداء. كما انهم مستعدون للموت، وأنا في هذا المساء حزين».

رددت عليه قائلاً: «انهم يحتاجون لأن يعيشوا وتستمر حياتهم!».

قال ڤامبا بصوت خافت «نعم» واضاف: «هذا الامر ستحدده لنا الآلهة».

هل لديه تشاؤم معين؟ وربما سيتحدد مصيرنا في غضون ساعات قلائل. بعدها سيتوجب علينا أن نعتمد على أنفسنا وحدنا. وبعد عشر دقائق تم ابعاد الاعمدة الحديدية التي تغلق باب سجننا بصوت مدوّ. ثم نزل السلّم كل من ستيل، وهاردنك، وسيفورت، وهوكنز وبورگة وزاحفوا متجهين صوبي. مسدساتهم كانت منصوبة وجاهزة. ومن غير لف ودوران هاجمونا أنا وڤامبا.

«اذن، هكذا ايها القرصان الصغير، نحن نريد أن

نقوم بعصيان؟» قال ذلك بورگة باستهزاء وهو يحاول تقليد القبطان بنحو غير جيد. في بادىء الامر لم أجب بأي شيء اطلاقا. فذلك امر كان لا معنىٰ فيه، فخطتنا قد انكشفت. وبحزن ضحكت بوجه قامبا. ثم همست لقامبا قائلاً: «لابد أن يكون أحد الحراس قد وشىٰ بنا، على الرغم من تهديداتنا بالساحرة». وفي ذلك الوقت كان البحارة يرفعون السلاسل عنا. ولم يبق وقت لاتخاذ اجراء آخر من قبلنا. فالرجال قاموا بسحبنا من أرجلنا وصولاً الى السلالم.

«حسن، وبعد ذلك ياقبطان»؟

«سيناله السوط، مثلما نال الساحرة!».

قشعريرة خوف مرت على جميع الرجال، وذلك لان ذكرىٰ موت الدكتور والبحار معه لم تكن محبّبة لديهم. فالكبد الجاف والقلب الذي غدا كورقة جلد ذابلة، فتلك لم تكن أسباب وفاة اعتيادية. وكان من المحبب لديهم أن يقوموا بشنقي في الموقع نفسه. وعندما تهيأ جثتي لرميها لاسماك البحر..! كان عليّ ان أضحك من الاعماق على خوفهم. باريت شعر بما كان يدور في خلدي. وشعرت فوراً بغضبه المتقّد.

«نعم، طبيب السفينة سوف يجلد! وهل تعلمون من

سيقوم بهذه المهمة؟ صديق عزيز لي واسمه ساريل...».

حينها شعرت بالخبر وكأنني ضربت بـ (١٨) قذيفة مدفع فوق رأسي وربما يكون المدفع أهون. لذلك فقد كنت محطماً تماماً لدىٰ سماعي الخبر. وبعلامة من باريت جاء البحار الذي كان يرافقني من خلف بحارة «كيلّارني». وفي تلك الاثناء كان الظلام قد حل، حيث كنت لا أستطيع تحديد الخائن بين صفوف الحرس الا كخيال.

وداخلياً كنت مذهولاً جراء الهم والاسىٰ. وبجهد جهيد فقط تمكنت من السيطرة على نفسي. بدأت انظر الى بقع القير على الواح أرضية السفينة وتمنيت لو كانت بقعاً من دم ساريل التي لا يمكن أن تزول أبداً. فأثر الدم الجاف يبقىٰ دائماً في مكانه.

ثم أمر باريت: «والآن، هيا بالاثنين الى المضخة!».

وكان عليّ وعلى قامبا أن نعمل طوال الليل على المضخة. وكان ذلك من أسوأ ما تصل اليه عقوبة شهدتها بحياتي. وقد تم حبسنا مع ستة عبيد آخرين في منطقة قاعدة السفينة، وكان علينا أن نشغل المضخات من دون انقطاع. وبضحكة سخيفة على شفتيه، قام الايرلندي بسوقنا أمامه. وكان يحرك رأسه بلا توقف يمنة وشمالا، ثم قال: «جيد، جداً، جيد جداً، ان المضخة شيء مفيد جداً

للسفينة». بعدها قام بترديد احدى الاغاني الايرلندية، والتي لم أفهم معانيها.

لم ارغب حينها أن أفكر بساريل، فضلاً عن أن هذا العمل المضني على المضخات لم يمكنني من ذلك أيضاً. وفي الواقع فان هذا العمل العقابي كان ضرورياً ولكن بلا معنىً. فالماء في ذلك المكان لم يقل أبداً، وذلك لأن المحل الذي ركبت فيه المضخة بالسفينة، بقي مفتوحاً بامر من القبطان باريت. وأراد أن يظهر لنا بذلك باننا كعبيد نخضع تحت سيطرته الكاملة.

«هيا، اصعدوا!» أمر سيفورت بذلك.

وفي الخارج حل الظلام وجاء الليل. وكان جميع أفراد طاقم «كيلّارني» قد تجمع على السطح. وكان القبطان باريت يقف أمامهم. وكان ينتظرنا بوجه تجهم، ويداه معقودتان خلف ظهره. وقال:

«والآن، ياقرصان، اخبرنا كيف كان سيتم الامر غداً لدىٰ غسيل رأس الشعر؟».

- «لست بفاهم لشيء مما قلت، ياقبطان»، قلت ذلك واردت الانكار.

هوكنز، الذي كان يمسك بذراعي، وجه لي ضربة قوية على أضلاعي، ترنحت بعدها وحاولت استنشاق المزيد من

الهواء. باريت ضحك بصوتٍ عال، ورجاله قلدوا ضحكه بعده، وكان نظري مشوشاً قليلاً. قمت اثرها بتعديل قامتي ومحاولة استنشاق الهواء اكثر، ثم وجه لي هاردنك ضربة اخرىٰ مست منطقة الكبد. لذا فقد نزلت على ركبتي.

«غداً سيصبح بامكانك معالجة نفسك»، قالها القبطان باستهزاء وأضاف: «أنا.. انتباه رجاءاً! والحذر..! خلفي كان ثامبا قد استغل فرصة تركيز الجميع عليّ وأراد رفع مزلاق الباب الحديدي لفتحه. عندها هاجمه اثنان من الحراس وتغلبوا عليه. وبضربة واحدة من أخمص البندقية تمدّد على الارض. باريت بدأ يلغو بلغته الاصلية، وكان الرجال يقفون بتشنج كامل. وقد تصورت بانهم سيسيئون معاملتي في أية لحظة، ولكن القبطان أعاد سيطرته على الجو فوراً. فقد قام باعطاء بعض الاوامر وجاء نحوي.

«من المؤسف تماماً، والمؤسف حقاً ياقرصان ما قمت به. وان كنت قد تركت الامر لرجالي.. ولكن ما هي جدوىٰ موتك؟ كلا، ليست هناك فائدة أبداً من موتك!».

ثم سكت القبطان. وقد شعرت بمدىٰ غبطته فيما لو سمع مني طلباً لنيل الرحمة منه. وفضلاً كهذا لا

استطيع عمله له.

«اذن، لننتظر الى الغد، ويجب أن يراك جميع «السود» في قبضتي، الامر الذي سيريحهم كثيراً. وسوف يكون هذا انذاراً لهم. غداً..»، واسترسل بكلامه. وقد تمكن الطاقم من التقاط أنفاسه ولو قليلاً.

سيفورت سأل القبطان قائلاً: «وماذا نعمل بالاثنين ياقبطان، هل نعيدهما الى مكانهما؟»

«كلا، كلا، دعوهما يعملا طوال الليل بالمضخة».

ان هذا الثقب الذي كان عليه تحطيم ارادتنا بدا لي كأنه عمّق صداقتي بڤامبا وعزّز الرغبة الشديدة في تحرير جميع العبيد على الرغم من كل الملابسات. ويمكن للشخص الواحد تحريك ذراع المضخة فقط عندما يتوافق ذلك العمل مع عمل زميله الذي يقابله في تحريك الذراع الآخر. فهي مسألة توازن لا اكثر. ولكن لا يوجد هنالك رجلان بالقوة نفسها فاحدهما. لديه مطاولة كبيرة والآخر يتعب بسرعة. وقد كنت اول من خارت قواه.

قال ڤامبا هامساً: «دعني اعمل محلك، وبامكانك أن ترتاح وأنا سأعمل عنا نحن الاثنين».

فهو يعمل لرجلين. وعضلات صدره كانت تنجز أعمالاً لرجلين أيضاً. وكان نَفَسه يصبح ثقيلاً جراء التعب.

وعندما كان يغلق فمه كانت قرقعة أسنانه تسمع. وعلى الرغم، من كل ذلك كنت أرى الابتسامة على وجهه عندما تلتقي نظراتنا. قلت له:

«حان الآن دوري ياڤامبا!».

وكنت قد استرجعت انفاسي وقمت بتشغيل المضخة بقوة كاملة. وقد تركني أعمل وحدي مدة دقائق قليلة، ومن شدة صداقته لي عاد فوراً ليعمل معي على الذراع. ولم يلمّح لي أبداً بأية علامة من علامات الحزن بسبب فشل العصيان ثم قلت له:

«والآن لنعمل معاً ياڤامبا!».

«نعم، معاً..!».

ثم ضحكنا بصوت عال. وكان المكان مجوفاً في محل المضخة. وكانت الضحكات مميزة ومرتبكة، ضحك اليأس الذي انطلق من أجسادنا المنهكة.

أما الايرلندي الذي كان يجلس بالقرب لحراستنا، فان وجهه كان غاضباً ومتجهماً. فهولم يفهم شيئاً من حديثنا. ومن شدة اثر الويسكي، فانه لم يكن ليدرك ان بامكان الصداقة أن تقوم بنيل الحرية، وحتى على ظهر سفينة ملعونة مثل سفينة «كيلّارني».

وكان من المتوقع أن أنال (٣٩) ضربة سوط في غضون

ساعات قليلة. ولم أعرف ان كان الوقت في الخارج قد مضىٰ وانبلج الفجر؟ وقد شعرت بأن نهار اليوم انقضىٰ سريعاً.

وعلى ظهر سفينة (كيلّارني) كان هناك سكون شديد. وكان الجميع قد التقىٰ هناك على ظهرها، الطاقم والسجناء. حينها خامرني شعور غريب. اذ كنت هادئاً تماماً، ورجلاي كانتا ترتجفان. الوقت بدا كأنه لا يتحرك. وفي الاقل فان الثواني لم تكن تمضي بسرعة مثل حالها المعهود.

والاصوات كنت اسمعها وكأنها آتية من مسافة بعيدة. لكنها بالتأكيد كانت هي نفسها ولم تتبدل: فالبحر الازرق، والسماء الصافية المضيئة، وجسم السفينة المنساب بهدوء امامنا.. نعم، كل شيء كان مثل السابق.

من أين أتىٰ هذا الشعور الغريب؟

قام سيفورت وباستيت بربطي على أحد المدافع. وبطني ضغطت على معدن المدفع الذي كان قد أصبح ساخناً جراء أشعة الشمس. والبحر لم يكن بعيداً عني، فقد سمعت صوت اغنيته العذبة. وبضربة واحدة من ضربات مياهه نسيت جميع اولئك الرجال على سطح السفينة الذين حضروا لمشاهدتي. فالبحر كان قريباً جداً.

بورگة كان يقف بالقرب مني. وكان يمسك بيده سوطاً

جلدياً ومستعداً للعمل.

القبطان اعطىٰ اوامره: «٣٩ ضربة، بورگه! لكن ساريل سيقوم بمساعدتك. حسن! هل تريد البدء ياقرصان؟» كانت تلك هي وسائل الانكليز. فمن أجل أن يكسبوا رجالنا الى جانبهم تماماً، طلب منهم باريت دليلاً لحسن النية. وكان بودي لو رأيت ساريل. ولكن ربما كنت لن احتمل رؤية نظراته وربما اعطائه بعض «القوة» لتشجيعه.

مرت ثانية رهيبة، وساريل كان يجلس الى جانب الباب.

«كلا، ياقبطان، اريد ان اجرب الضربات الاخيرة افضل». قالها ساريل مجيباً القبطان.

«عندك الحق، فالضربات الاخيرة هي الاسوأ. اذن هيا يابورگة ابدأ أنت!» قالها القبطان موافقاً وضاحكاً.

غلقت بعدها عيني. وفي الصمت الذي لف ظهر السفينة، سمعته يتنفس بعمق. ثم رفع انفه ووقف بثبات على الارض. والصوت الذي تولد من ضربته، ذكرني بصوت الفأس الذي كان يقطع الخشب بقوة.

بعدها أزّت الخيوط الجلدية مخترقة الهواء.



حمى السجن حميته!.

كنت فاقداً للوعي عندما فكوا رباطي عن المدفع. لذلك قام أحد البحارة بسكب دلو ماء فوق رأسي. تنهدت بعمق. ثم فتحت فمي مثل السمكة التي تكاد أن تموت لاستنشاق الهواء.

«والآن ادهنوا ظهره، ياساندوفال! إذ يجب على طبيب الباخرة أن لا يموت ويتركنا..» كان ذلك امر القبطان باريت.

«نعم، سيدي!».

وسبق للبحارة أن صنعوا خليطاً غريباً وضعوه في أحد الدلال الحديدة ويتكون من: عصير الحامض، والملح، والقرنفل والبارود. وقام البرتغالي بدعك جروحي بقوة به. باريت وطاقم السفينة الاخرون كانوا يتلذذون لدى رؤيتهم مدى ألمي اثناء ذلك.

بعدها قال القبطان برضا: «جيد، فالحرق سوف لا يصيبه، والجروح سوف لا تشفى سريعاً. وعندما يتذكرها مدة طويلة، سيبقى هادئا مدة طويلة أيضاً!».

وعندما تم ارجاعي الى السجن كنت في حالة مزرية. وقد زحفت على الاربع وصولاً الى قرب قامبا، الذي كان ينتظرني.

أراد أن يقول لي شيئاً، وباشارة تعبة مني أشرت اليه لان يسكت. بقيت مستلقياً على بطني بلا حراك مدة طويلة. وظهري المتشقق بدا كأنه سطح مستقل ملتهب وحده. بعد ذلك مباشرة هزتني آلام ممزقة وحمى عالية. لذلك قمت بالهذيان وطلبت شيئاً لأشربه.

قال ڤامبا: «عليك أن تنتظر الحساء، اذ لا توجد لدينا هنا قطرة ماء، وأنت تعرف ذلك طبعاً..».

وعلى الرغم من انهياري حاولت رؤية وجهه. وكان يحدّق بيّ بحزن ولكونه لم يستطع تقديم شيء لمساعدتي. وكان منحنياً فوقي وينتبه لردود فعلي تماماً. كنت أعض على أسناني وأدرت وجهي الى جانب. كان عليه أن لا يرىٰ حالتي المأساوية.

ثم قال لي: «عليك أن تنام الآن!».

بيد أن ذلك الامر كان صعباً بالنسبة لي. فالآلام لم تكن جسدية فقط، بل نفسية أيضاً اذ أن خططي قد فشلت، وصديقي هو الذي وشى بي. كنت غاضباً على عموم البشرية وأردت أن أموت. وفجأة حصل لدي تفهم لقبيلة الـ (إيبوس) وتمكنت أن أشعر بأنه توجد حالات في الحياة يكون الموت فيها هو الدواء الشافي والخلاص فقط. نعم، فأنا لم أرغب بالاكل اكثر، وحتىٰ الاداة الخاصة لم تكن لتنفع لمعالجة هذا القرار الذي اتخذته. وحتىٰ إن أراد أحدهم اجباري لابتلاع شوربة الاذرة.. فقد أردت أن أموت، وفي النهاية لابد أن اتمكن من انجاز ذلك الامر.

سألني ڤامبا بهمس: «هل تحسنت حالتك؟».

«كلا، وأنا انتظر».

وقد فهم ما كنت أقصده.. وبالتأكيد فان حالته كانت ستكون مثل حالتي بعد عقوبة مشابهة. لكنه كان عبداً، وكان يأسه أعمق من ذلك الذي كان عندي. وأنا لم اكن عبداً، ولم يكن مسموحاً لي لأن ينتابني اليأس والقنوط، وكان عليّ ان استمر بالكفاح والقيام بتنظيم العصيان على ظهر السفينة.

الانكليز! هؤلاء الكلاب! يجب عليّ أن لا أفوّت أية فرصة للنيل منهم! وحتما ستسنح فرصة ثانية إن عاجلاً أو آجلاً للتخلص منهم! عندها سأقوم بالانتقام.

نعم، كان عليَّ أن انتظر. وفقط بالمطاولة والارادة الصلبة، فان العمليات الكبرىٰ تحقق نهايات طيبة! هذه هي تصوّراتي وأفكاري. وربما يكون حظي في عدم امكانية معرفة إرادتي وصلابتها وعزيمتي عندما أريد القيام بتنفيذ أمر ما، وحتىٰ من قبل أذكىٰ الانكليز!.

قمت بالعض على أسناني الى أن آلمتني وسمع ڤامبا تلك الاصوات. وقد تصوّر بأن ذلك هو من جراء الآلام، لكني كنت قد شارفت علىٰ نسيانها.

وبلمحة حنان دافئة قام بوضع يده الكبيرة على كتفي. ولم تكن تلك بالنسبة لي، يد عبد جاهل، ولا يد عبد مكبل بالسلاسل، وإنما يد صديق حقيقي، والقليل على ظهر

السفينة كانوا يفهمون معنىً ذلك. وبأعينهم كان (ڤامبا) لا يتعدىٰ كونه «خشب أبنوس» ويده بالذات هي سوداء. بالنسبة لي كان (ڤامبا) صديقاً جيداً. ماعدا ذلك فان باطن يده كان يضيء مثل لون يدي.

وبعد خيانة ساريل كنت محطماً تماماً. لذلك جلست بصمت مدة ساعات طوال وبلا حركة في مكاني.. وكنت قد وقعت في ازمة نفسية عنيفة. وكان عليَّ أن أطرح على نفسي التساؤل نفسه الا وهو: لماذا قام ساريل بخيانتنا؟ فشيء مثل هذا لم يكن وارداً بيننا نحن القراصنة. فالشرف، والاخوة، وميثاق الصداقة.. أكانت كل تلك التعابير كلمات جوفاء جميعاً؟

فالامر الذي حصل كان يمكن أن يكفيني. لكنني أردت أن أعرف بدقة اكثر ماذا حصل له. هل قام برؤية مصلحته الذاتية فقط؟ فلم اكن انا لأتصور وجود شيء أثمن بالنسبة لساريل من الحرية، والحرية بالذات كان بامكاننا استردادها جميعاً ومعاً! هل فقد ثقته بي، أم أن الوحدة التي كان يعيشها وسط العبيد منعته من التفكير بشكل سليم؟ لقد أصابه الجنون حتماً. هكذا فقط يمكنني ايضاح امره لكونه هرب الى معسكر الانكليز. ومرت قشعريرة باردة فوق ظهري، بيد أني لم أعر ذلك أي

اهتمام. ويعلم الله كم كان الجو تحت ساخناً عندنا في السجن. وكان ڤامبا ينام بالقرب مني، وهمه أن يريحني.

كانت أفكاري تحوم حول دائرة واحدة. بعدها لاحظت بأن يديَّ باردتان وكذلك قدمي. ومرة ثانية مرت قشعريرة على جلدي وبدأت أسناني تصطك. وكان العرق البارد يتصبّب على جبيني. كذلك فان رأسي أصبح ثقيلاً بثقل الحجر في الوقت الذي كانت تدور فيه أفكاري بجميع الاتجاهات. ولم اكن استطيع السيطرة عليها. وقد رفرفت تلك الافكار حولنا مثل الشراع الذي تعصف فيه الرياح وسبق أن مزقته العواصف. استلقيت حينها على الارض. في الخارج كان الجو بارداً بالنسبة لي، أما داخلياً فقد كنت أحترق أما اصطكاك أسناني، فلم اتمكن من السيطرة عليه، مما حدا بڤامبا لأن يستيقظ.

«هل أنت مريض؟» سألني ڤامبا.

«كلا.. اكيد.. أنا اعتقد.. نعم».

ثم ظهرت لي هياكل العبيد قربي وكأنها تهتز. وكانت تبدو الآن كأنها الصخور السود الناعمة التي يحركها البحر بين الحين والحين قليلاً. وفي الاعماق رأيت ثقباً في المحيط. ثم انتابتني حالة من الدوار العنيف ولم استطع المقاومة اكثر. كذلك ظهرت لي صورة ساريل وهو يرسم

على وجهه ابتسامة استهزاء. كل ذلك كان بسبب الحمىٰ. بعد ذلك علمت بأن هذا المرض اسمه «حمىٰ سانت - ڤالير»، وتسببه معاناة نفسية كبيرة. أما أنا فقد كنت أعرف تماماً ما هو سبب ذلك المرض عندي. بقيت ثلاثة أيام بلا وعي. وعندما عدت الى وعيي، قام ڤامبا بالتحدث اليّ بصوت رقيق ومطمئن. لكن كلماته لم أفهمها، بل كنت التقط نغمة اللغة فقط. كما لو كنت قادماً من بعيد، وأشعر بأن قواي خائرة.

وبصوت لم اميزه كصوتي أنا قلت: «انا عطشان!».

«لا يوجد لدينا ماء هنا».

آه، هذا ما نسيته أنا ثانية. كانت شفتاي قد تورمتا جراء الحمىٰ وتشققتا كذلك. وبقيت مغلقاً عينيَّ دقائق عديدة. النوم، والشرب، والنوم الطويل..

كنت اسمع كذلك من على بعد مسافة طويلة همسات وتنهدات السجناء الآخرين في اذني. وفي المساء ارتفعت درجة حرارتي ثانية، وسمعت أصواتاً عند السلالم. بيد اني لم اهتم بها وتركت أفكاري تبتعد ثانية. وفجأة شعرت بأن أحداً ما بقربي، وأخذ يدي. وصوت قال لي محدثاً: «مثلما أرىٰ فان صحتك أصبحت أحسن. وسنتمكن في اقرب فرصة من الاكل على سطح السفينة

وسوف اهيىء هذا الامر لك، وبأن..».

فتحت عينيّ، وعلى الرغم من الظلام الدامس تمكنت من مشاهدة وجه سترونك، وكان هو معي. وقام باعطائي بعض الماء الدافىء وضعه في صحن نحاسي.. وكان مذاق الماء رائعاً. قلت له:

«شكراً»، «وهذه الحمىٰ..».

- «ابق صامتاً تماماً. وعندما تقف على رجليك..».

أردت عندها رفع يدي، لأريه بأن الامر عندي سيّان، لكني لم أتمكن من ذلك، اذ كانت ثقيلة مثل الرصاص.

وكان صوت سترونگ ذا نغمة سطحية عابرة عندما أوضح لي:

«لقد سأل عن صحتك ساريل ثلاث مرات. وأنا..»

لم أرغب أن اشاهد أي شيء، ولذلك اغلقت عيني. ومرة ثانية بدأت الافكار تدور في رأسي.

«شكراً، ياسترونگ! اذهب الآن، فالجو هنا ساخن جداً، واخشىٰ أن تأخذ عدوىٰ ما مثلي».

بعدها سمعت بوضوح تام كيفية توجهه نحو السلالم.

«لديك الحق ياصديقي الشاب، ان هذه الحرارة هي تماماً.. وعندما أعود اليك غداً ثانية، سآخذك الى سطح السفينة. تشجع وسوف تصح ثانية!».

وعندما انصرف، ارتبكت أفكاري ثانية. بعدها حضر ڤامبا اليّ وقال:

«هل تحسنت صحتك؟ واعتقد انك قمت بالتحدث قبل قليل الى سترونگ وكأنه كان هنا معنا. وذكرت كلمة شجاعة أيضاً في حديثك..».

اثر ذلك جلست وبصقت في وسط وجه ڤامبا وقلت له:

«الشجاعة، الشجاعة؟ نعم، انها لديّ! ومن الشجاعة الكثيرة فان رأسي سوف ينفجر! وماذا علي أن أفعل بذلك؟ هل بامكانك أن تقول لي؟».

«اهدأ»، قالها ڤامبا وأقنعني لكي ابقىٰ نائماً.

وخارجاً عن ارادتي كنت أصيح من الغضب: «نعم، نعم، سوف احتاج للشجاعة من أجل أن أعيش.. ومن أجل أن اقتل ساريل، في وقت ما..»

وبعد ظهور سترونگ عندي، أصبحت لدي فجأة رغبة في الحياة. وفي الساعات الطوال التي توجّب عليّ قضاءها لاداء الضروريات، سنحت لي فرصة واسعة للتفكير بأشياء طبيعية وما وراء الطبيعية. وقوة الساحرات كانت قد أثرت فيَّ بشكل قوي. آه، لو تمكنا من استخدام قوتهن في تحرير أنفسنا؟ هذه الفكرة وافقتني كثيراً. بحيث بدأت بالحديث بها مع ڤامبا فوراً.

«لماذا لم تقم الساحرة آميمبا بتيبيس قلب وكبد القبطان قبل أن تموت؟».

«لأن المرء يحتاج الى القبطان لايصال السفينة الى الميناء بشكل سليم».

بدا ذلك الجواب معقولاً وموضحاً. وتجاربي كقرصان كانت تستند بنحو مطلق الى حقائق. يضاف الى ذلك فان الشك كان يساورني بخصوص جميع الامور التي كانت ترتبط بالسحر. وهكذا فقد تخليت عن هذه الفكرة أيضاً، وتوجهت من جديد الى خططي السابقة.

وعلى ظهر سفينة «كيلارني» بدا من المستحيل القيام بمحاولة تحرير بقوانا الذاتية. وعلى عكس الحالة في سفينة (آنجلين)، فان المراقبة كانت مستمرة علينا من قبل الحراس الذين عاشوا معنا باستمرار. والآن، فقد قام الطاقم بأخذ ملاعقنا منا أيضاً.

فان كنا نريد نيل النجاح، فان الحاجة هي المساعدة من قبل المحيط الخارجي للعنبر الوسطاني. وربما كان بامكان النساء أو الاطفال تقديم مساعدة لنا، فعلىٰ سبيل المثال جلب الانتباه اليهن بدلاً منا من خلال الصراخ، أو الفوضىٰ المفاجئة. وذلك يكون ربما الحل. وواجبي كطبيب للسفينة وضعني في موقع أتمكن بوساطته تحقيق خطة

كهذه. وقد تمكنت في غضون ثلاثة ايام من التقاط أنفاسي جراء الجَلْد والحمىٰ.

وحالما شعرت بنفسي قادراً على الحركة، بدأت بزيارات المرضىٰ ثانية. وحسب العادة، فان (ڤامبا) كان يرافقني من أجل القيام بالترجمة. وهكذا فقد تمكنا من إعطاء بعض التعليمات. بعدها قمت وحدي بزيارة لباريت.

«ياقبطان، لقد انتشر وباء حمىٰ السجون على ظهر السفينة. ولحد الآن اصيب ستة من السود. فان لم يتم عزلهم فوراً، فان عموم الحمولة تكون في خطر!».

صدقني القبطان من دون أن يراهم، ولم يكن راضياً. وقام بالتخطي بقلق على سطح السفينة جيئة وذهاباً، واخيراً وقف ووجهه صوب البحر، وكانت يداه متشابكتين خلف ظهره. وهكذا مرت ثلاث دقائق مليئة بالتوتر. وكانت أصابعه تتحرك وفق ايقاع موسيقي لم يسمعه غيره، وربما كان بحالة قلق شديد.

أردت أن أقول شيئاً، لكني فضلت أن أسكت. ماذا يدور في الحقيقة في رأس تاجر الرقيق الانكليزي هذا؟ وهذا الرجل كان قادراً على القيام بأي شيء يريده. والشيء المؤكد الذي كنت اعرفه هو: انه يبحث عن مصلحته الخاصة فقط. هذا الامر توجب عليَّ مراعاته في خططي.

«اذن يتوجّب عزل المرضىٰ، أليس كذلك ياقرصان؟» سأل القبطان.

«نعم، ياقبطان. ان هذا امرٌ ضروري. وعلينا ان لا نؤجل هذا الموضوع كثيراً، لأن....».

«العدوىٰ ممكن أن تنتقل الى الطاقم؟».

«نعم ياقبطان! بخصوص هذا الامر رغبت التحدث اليك الآن. ومن الافضل أن نضع المرضىٰ في قارب النجاة الكبير. وعلى الآخرين أن يبتعدوا عنهم. وهكذا سيصبح لدينا ما يشبه بالمستشفىٰ، والمرض سوف لا ينتشر، وسأقوم بالاعتناء بالمرضى عندنا».

«حسن».

استدار بعدها باريت ونظر اليّ. وكان ذراعاي ممدودين وكأنني اقوم بالدفاع عن أحد المتهمين في المحكمة. واعتقد بأن طروحاتي كانت مقنعة تماماً.. وبدت ملامح ابتسامة على وجهه. وهز رأسه وأعاد نظره الى البحر. وحال قيامي بتنفس الصعداء سمعته يقول:

«نعم، سيتم عزلهم فوراً على السطح وأنت معهم!».



علامة من علامات القدر:

كانت حالتي قد أصبحت مزرية. ولم يكتف الامر بي من ناحية سقوط خططي مثل البيت الورقي فحسب، بل تعدىٰ ذلك لأن يضيع العبيد الستة، الامر الذي سيؤنب ضميري باستمرار. وكان دماغي يعمل بسرعة الريح،

وكان عليّ أن أجد مخرجاً وبسرعة كبيرة. ماذا يتوجب عليّ أن اقول لباريت لكي ألغي موافقته؟ لم يكن بمقدوري أن اقول له معترفاً بأن «المرضىٰ» هم بأحسن حال. كان ذلك سيكون بمنزلة النهاية لي وافشالاً لكل آمالنا يجب أن يكون هناك حلٌ، أي حل! ولكن كيف؟

والقبطان اعطىٰ الآن اوامره: «هاوكنز، باستيت، ستيل! أجلبوا المرضىٰ! وطبيب السفينة سيرافقكم!».

هاوكنز استفسر: «وماذا يجب أن نعمل بهم؟».

«أنرميهم في البحر؟».

وبيأس شددت قبضتي. ولم يكن بمقدوري عمل أي شيء.

«في بعض الأحيان يبكي الانسان على كلب ميت، ويفرح في أحيان اخرىٰ على موت انسان». أين سمعت هذا القول؟ لم أتذكر أين. والشيء الوحيد الذي كنت اعرفه هو أن المئات من العبيد كانوا سيحتفون بموت باريت. وطاقمه؟ لا أعرف ان كان طاقمه سيذرف عليه ولو دمعة واحدة؟

كان عليّ أن اكسب الوقت..

«ربما سيكون بمقدورنا الاحتفاظ بهم على سطح السفينة. وبالمناسبة فانا لا اعتقد بأن الدكتور سترونگ

كان سيرميهم في الماء وفي الاقل ليس في حالتهم الراهنة هذه»، قلت ذلك موضحاً.

«صحيح ياقرصان! ولماذا لا»؟

كانت حينها أفكاري تتصارع وأجبت: «لسببين ياقبطان».

«وما هي، ياطبيب السفينة؟».

«اولا، الأمر يتعلق بعدم اعطاء خسائر».

«صحيح».

«وثانيا، هو امكانية شفائهم ثانية».

«نعم، صحيح؟».

«كان سترونگ من أجل مصلحته ومصلحة المرضىٰ سيحتفظ بهم في قارب النجاة الى اللحظة الاخيرة. وبسبب خطر العدوىٰ كان سيبعد عنهم الحراس».

«ربما، ياقرصان، ولكن...، ولكن أنت لست الدكتور سترونگ».

«أنت محق في هذا ياقبطان! فانا لا توجد لدي لا خبرته ولا دوافع عمله. ولكن لماذا اريد الاحتفاظ بالمرضىٰ على سطح السفينة؟».

«هذا ما لا أعرفه أنا حقاً».

«الآن، وببساطة جداً، لأنني متأكد أن بامكاني

انقاذهم. وأنا أعرف حالات مشابهة حصلت لزملائي. ولم نسمح لأحد من السير على سطح السفينة أبداً قبل أن يموت المريض».

«ولماذا لم تسمحوا؟».

«بسبب سمك القرش».

كان على باريت أن يضحك. وانفتحت اسارير وجهه.

«ياهاوكنز، ستيل! ضعا المرضىٰ في قارب النجاة! والقرصان يهتم بهم».

وبذلك تم انقاذ السجناء، والجزء الاول من خطتي حقق النجاح. بعدها تنفست الصعداء.

اختفىٰ «المرضىٰ» الستة في قارب النجاة الكبير، وكانت لدىٰ الحرس تعليمات لترك مسافة بينهم وبين المرضىٰ. وبعد يومين حصل فجأة هياج كبير على سطح سفينة «كيلّارني». هذا الشيء الجديد انتشر على سطح الباخرة كالنار في الهشيم وصولاً الى العنبر الوسطاني: «الأرض على مرمىٰ البصر!».

توقعت ان تلك لم تكن من جزرنا، وانما جزيرة صغيرة، أو ربما بعض الارخبيلات الصغيرة. لكني كنت قد اخطأت في هذا المجال. إذ علمنا بعد نصف ساعة، بأن الامركان يتعلق بجزيرة كبيرة تقريباً قرب منطقة باربودا.

وحسب المتوقع، فقد قرر (باريت) القاء المرساة على بُعد مسافة من الساحل. كان علينا أن نأخذ الماء الصافي. هذا الامر أصبح من مستلزمات الحياة في المدة المنصرمة. لذلك فقد تم تحديد قاربين لهذا الامر. أحدهما للسود الذين يجذفون مع حرسهم، والآخر خال لنقل الماء. كنت أنا ضمن الجذافين، و(ڤامبا) لم يكن معي. كان يجلس بقربي أحد السود من قبيلة (ماندينكو). وكان يضحك معي وينظر الى الساحل. بعدها رمقني بنظرة أوضحت لي ضرورة القيام بمحاولة للخلاص. ولكني بينت له بأني لن اقوم بأية محاولة مادام ليس بالامكان تحرير جميع العبيد فوق سفينة «كيلّارني». وبدا زميلي وكأنه لم يفهم اشارتي وتصرف بلا ارتياح. بعدها تبين كأنه قد تخلىٰ عن خطته التي في باله تماماً.

عندما يكون البحر في مكان قريب، فانه غالباً ما يكون الماء الحلو ذا نوعية جيدة. لذا فان رجال البحر غالباً ما يشتاقون الى ماء العيون. وماء النهر لم تكن سمعته جيدة لديهم. فهو لا يبقىٰ صافياً مدة طويلة، ويجلب الكثير من الأمراض بعد تذوق طعمه الجيد. وحتىٰ الانكليز أنفسهم، والذين لا يخلطون الماء مع الوسكي أبداً، عرفوا ذلك تماماً. لذلك فانهم اخذوني معهم كوني طبيباً

للسفينة. وفي الحالات الاعتيادية فان الطبيب هو المسؤول ايضاً عن ماء الشرب على ظهر السفينة. لذا قمت أنا وبنحو لبق تماماً بسحب نفسي عن هذه القضية، وذلك بوضع احدىٰ المواد الكيمياوية من حقيبة سترونگ في الماء كتجربة.

«هيا، يجب أن يمتلىء القارب!» صاح سيفورت.

الزنجي الضخم الجثة رمقني بعدها بنظرة اخرىٰ. وأراد أن يذكرني بخطته الخاصة بالهروب ثانية. الغابة الاستوائية كانت على بعد مسافة قليلة منا، حتىٰ أن عصفوراً بألوان زاهية وقف على احدىٰ قمم الأشجار، وقلبي بدأ يدق بسرعة اكبر. وكان كل شيء هنا ينبض بالحياة، بالحرية.. وكنت أنا جاهزاً. فهل قام العصفور باعطائي اشارة واضحة؟

قمت أنا بتفريغ دلوي في القارب بتباطؤ.

كانت الغابة قريبة منا، وقريبة تماماً. ولكن وعلى الرغم من كل ذلك، عدت بأفكاري الى ظهر سفينة (كيلّارني) مع سفينة العبيد. كنت أفكر بالشبان الكثيرين وبالبنات، والذين كان يتم حبسهم معاً مع النساء، وبجميع الرجال وبضمنهم (ڤامبا) الذي بقي على ظهر السفينة، وكذلك فكرت بآيزن آرم، وعصفور الشؤم.. الزنجي العملاق قام

بطريق الخطأ بمس ذراعي، من أجل اعطائي دفعة اخيرة. لذا فقد أدرت ظهري للانكليزي وهمست قائلاً: «فيما بعد، فيما بعد! يجب عليّ العودة الى ظهر السفينة بسبب الآخرين الذين بقوا هناك..».

ولا أعلم كيف عرف مقصدي. وقام إثر ذلك بانزال رأسه وتفريغ دلوه في القارب. وبالتأكيد فانه كان متضايقاً جداً. لكنه ضحك لي بعدئذ، وفجأة بدأ بالغناء.

وبعد اكثر من (٢٤) ساعة، واكثر من رحلة واحدة، قمنا برفع المرساة. وكان العبيد قد فهموا بأن «الارض على مرمى البصر» كان يعني نهاية الرحلة وخلاصهم من العذاب. وكان البدء بالرحلة ثانية يعني لهم خيبة أمل شديدة.

قلت لقامبا: « نحن الآن تقريباً في منطقة الكاريبي. وآمل ان تتم مهاجمتنا من قبل القراصنة! حينها سنتمكن من الخلاص.»

«لكن باريت يملك مدافع على سطح السفينة.»

كان عليّ أن اضحك بصوتٍ عال.

«مدافع؟ وحتى ان كان لديه مائة مدفع ويضعها في ثلاثة صفوف، فان جماعتي لن يترددوا في مهاجمته. وقرصان واحد منهم سيقابل عشرة بحارة.»

هز قامبا رأسه غير مصدق، ولم أحاول اقناعه اكثر بادعاءاتي. فهل كان لدينا حظ في الخلاص على ايدي زملائنا القراصنة؟

وفي مساء هذا اليوم رأيت آيزن آرم اثناء جولة التمشي على ظهر السفينة مع السجناء ضمن قاطعه. نظراتنا تقاطعت حينها. ومن دون ان نتبادل حتى كلمة واحدة فيما بيننا، حزرت ماكان يدور في رأسه: الكاريبي... ورفاقنا القراصنة.. فهل كنت اؤمن بالغيب مثل بقية القراصنة؟ وعند أقدامي حطت احدى الاسماك الطائرة، الامر الذي أعده علامة من علامات القدر. وبسرعة قمت برفعها من على الأرض وأريتها من بعيد لآيزن آرم. والذي غمز لي مجيباً. بعدها بدأت بتفحص السمكة في يدي بدقة اكبر. وكان لونها يميل الى البني على الظهر، والمبقع باللون الاخضر. فضلاً عن اللون الاسود في بعض الاماكن. وعلى بطن هذه السمكة رأيت بعض البقع الغامقة ذات اللون البني المائل للاحمر. وكانت لم تزل على قيد الحياة. وبرمية قوية قمت باعادتها الى الماء ثانية، ومنحتها الحرية مرة أخرى. لكنني لم أدع الهلوسة تصل الى تفكيري. فأسماك التون والانواع الاخرى التي كانت تسير بمجاميع كانت ستلتهمها حتماً.

انقضىٰ النصف الاول من الليل بسكون تام مثل السابق. ولكن فيما بعد، واعتقد ان الوقت شارف على الثالثة صباحاً، سمعت ضجيجاً في السجن. كان ذلك على غيرما اعتدنا عليه، وذلك لأن البحارة كانوا لا ينزلون الينا أبداً في الليل. وسمعت وقع خطوات على السلالم. وفي عتمة الليل الكاملة في سجننا ظهر أمامنا ظل أحد الاشخاص. وسمعت أصوات همس. والكثير من الرجال كانوا يتقلّبون وهم نيام، ثم نهضوا فجأة مستيقظين. والهمس بدأ يتصاعد ليصبح أصواتاً. والضجيج بدا بالانتشار. أما صوت سقوط السلاسل فقد أيقظ آخر النيام. (ڤامبا) كان يتكلّم بصوت واطىء مع الرجال في المدخل.

عندها سألت أنا: «ماذا جرىٰ؟».

وجراء اضطرابه لم يتمكن (ڤامبا) من التحدث والاجابة وقال: «آه.. لو كنت تدري..» ولم يورد اكثر من ذلك في حديثه. ثم قدم أحد الرجال زاحفاً نحونا، وكان هذا الرجل ساريل!

«بسرعة يافرانسوا، دعهم ينزعون قيودك! ولا تعمل أية ضجة رجاءاً!»

تحدثت باقتضاب مع ڤامبا. وكان عليه أن يوصل

تعليماتي الى الآخرين. بعدها سألت ساريل: «كيف توصلت الى انجاز هذا العمل؟ وأين هم بحارة باريت؟».

«الويسكي! ولا يستطيعون الشرب بعد اكثر. كما اني تغلبت على الحراس على ظهر السفينة. هيا، بسرعة الى الخارج قبل أن يدق ناقوس الانذار! فهم ليسوا جميعاً ثملين».

هل كانت هذه هي الفرصة المنتخبة التي ننتظرها نحن منذ أسابيع؟ ولكن لم يكن هذا هو الوقت المناسب لأسئلة كهذه.. وكان قد تم تحرير عشرة عبيد من قيودهم، وتم التغلب على الحراس والجواسيس لكي لا يتمكنوا من اعطاء الانذار للآخرين. وفتح القيود لم يستغرق كثيراً من الوقت. وكل واحد تم تحريره من القيود كان يساعد الآخرين في عمل الشيء نفسه وقام السجناء بالزحف نحو السلالم. كما قمت أنا بحشر نفسي للزحف نحو الامام.

«هيا!» قلتها بهمس. ففي بادىء الامر كان الرجال يتصرفون بهدوء، ولكن بعدئذ فقدت السيطرة عليهم. وكانوا يتدفقون الى الفضاء الرحب. وبعد ثلاث ثوان أصبحت فوق على سطح السفينة.

أما عيناي اللتان كانتا قد تعودتا على ظلام العنبر الوسطاني فقد ازداد نظرهما واصبح يعادل تقريباً النظر

في ضوء النهار. فضلاً عن أن ليالي الكاريبي تكون مضيئة تماماً. والقمر الذي كان في تلك اللحظة مغطىً قليلا، سيبزغ حتماً في غضون وقت قليل. وكانت أرجل العبيد ترتطم بقوة على الالواح الخشبية لسقف السفينة. وكان ما يشغلني جداً هو ظهور البحارة في وقت مبكر مسلحين بالبنادق والمسدسات.. لكن الحظ حالفنا.. فقد تم فتح السجن الثاني. ومثل الاشباح قام العبيد بالصعود من أعماق السفينة الى السطح. بعدها رأيت آيزن آرم. وفي مؤخرة السفينة سمعت صوت اطلاقة، تلتها صرخات وأوامر باللغة الانكليزية. إذن تم انذار الطاقم! ولم يكن بالامكان ايقاف السود. وصرخات قتالهم توحدت لتصبح صيحة مدوّية. وفي الحقيقة مع اني كنت الى جانبهم، لكن الدم بدا وكأنه تجمد في عروقي من الخوف.

«غير مسموح لكم قتل البحارة، ودعوهم على قيد الحياة!» صحت بقدر استطاعتي. لكن صيحاتي تلك تلاشت وكأن أحداً لم يسمعها. وحتىٰ آخر السجناء حضر الآن الى سطح السفينة. وكان الجميع يصيحون على غير انتظام. وكانت تسمع أصوات قوية من مؤخرة السفينة كما هي الحال من مقدمتها. وفجأة اصبح آيزن آرم الى جانبي.

عندها قلت له: «علينا أن ننقذ الطاقم، وبسرعة!».

«وكيف؟ فالسود قد تحرروا تماماً».

«أين هو عصفور الشؤم؟».

«لقد سحق في خضم الزحام. لكن شيئاً لم يحصل له».

«جيد! ناد على الآخرين! يجب علينا ان نستولي على غرفة الذخيرة والبارود».

لذلك قام آيزن آرم بالصفير بأصابعه. وفي أقل من عشرين ثانية أصبحنا في مؤخرة السفينة. وهناك كانت الاسلحة. وحسب خطتي فقد كان علينا أن نحصل اولاً على البارود في بداية العصيان. أما في حالة فشل العصيان، فكان علينا حينها أن نقوم بتفجير كل تلك الكميات. وسبب ذلك هو أن العيش على سفينة للعبيد هو اسوأ من موت مباشر.

«خذ هاتين البندقيتين، ياآين أوكة!».

عصفور الشؤم صاح قائلاً: «اعطني بعض الرمانات اليدوية، اللعنة! كذلك اعطني بعض الفتائل والبارود!».

ايفز قال مبتسماً: «بحق القديس ايفز، ان رجلي تدغدني، وان غرفة البارود أصبحت ملكنا بحق!».

وكانت السفينة قد انقلبت رأساً على عقب. فالضجيج، وضربات الفؤوس، والصراخ، والركض.. وكان الامركانه

في دار للمجانين. وكان العويل يسمع في أوقات منتظمة. أما البحارة القتلىٰ، فقد جلبوا الى سطح السفينة واحداً بعد آخر. والنساء أمسكن بخادمي السفينة الصبيين الاثنين. وبعد فترة توقف اطلاق النار.

«اين هو ڤامبا؟ ڤامبا؟ ڤامبا؟» تساءلت أنا.

لقد اختفىٰ. وربما كان يحاول تهدئة الثوار وانقاذ بعض البحارة. بيد أن هذا الامر لم يكن يسيراً.

بعد ذلك تبدل الصياح ليصبح على شكل دوي، وصوت عال جداً. وفي قمرة القيادة حصلت حركة ما. وقامت الحشود بالعودة الى السارية الرئيسية. وكانوا يحملون حزمة معيّنة ويحاولون تمزيقها جميعاً. وكان ڤامبا يتوسطهم، ويلوح بيده ويصيح مثل الآخرين. واللّغة ارتفعت، والقمر قام باضاءة مشهد فريد من نوعه.

عندها صحت أنا: «القبطان! ان هذا هو باريت!».

وفي أقل من جزء الثانية عرفني ذلك الانكليزي، وكان مضرجاً بدمائه وصاح: «النجدة.. ياقرصان.. النجدة!».

حاولت شق طريقي اليه وسط الحشد، لكني كنت أتقدم ببطء شديد. (ڤامبا) أعطىٰ أمره اليهم. وبعد ذلك مباشرة، تحرك الرجال صوب سور المركب. وحيث أن الجميع ركضوا صوب جهة واحدة من السفينة، فقد

حصل خلل في موازنة السفينة. وعندما قاموا بالقاء الحزمة في الماء انزلق معها ومن شدة الحماس رجلان من على ظهر السفينة. تبع ذلك صوت صيحة انتصار مدوية. فالرجال أصبحوا احراراً، وأصبح أصحاب «كيلّارني» في أيدينا!

الارض في مرآنا:

توقف الضجيج فجأة، وكأن ذلـك حصل من خـلال إعجوبة. أما ڤامبا فقد حضر الى قربي وهو يردد بعض الجمل المصاغة بأسلوب عجيب للمديح.

«لقد انتصرنا.. لقد انتصرنا!».

«نعم، ياڤامبا. ولكن البحارة كانوا أحسن..».

بعـدها شـاهدت كيفيـة قيام بعض السـود بتسلق السارية الكبرىٰ، ولحظت الآخرين أيضـاً وهم يعملون بالاشرعة.

عصفـور الشؤم أوضح لي: «هنـاك في الاعلىٰ يجلس ثلاثة من البحارة، والسود سيجلبونهم الى الاسفل مثلما تجلب أثمار جوز الهند!» إلا ان الأمر اصبح متأخراً. فقد ارتطم جسد سيفورت بضربة مدوية على سطح السفينة. ومن على سلة المراقبة القىٰ وليام بورگة بنفسه الى الماء. ثم اعطيت الامر لانقاذ الثالث.

صاح ڤامبا مردداً بعض الاوامر، لكن أحداً لم ينتبه أو ينصاع لامره.

عندها صحت على زملائي: «اطلقوا النار!».

ثلاث طلقات من البندقية مزقت سكون الهواء، وجرح اثنان من العبيد، وأُنقِذْ البحار. وكان ذلك هو البرتغالي ساندوڤال. بعدها قدم ساريل نحوي. وكان يضحك وكأنه قام بعمل نكتة باصدقائه. وكان يحمل في كل يد مسدساً من مسدسيّ، وقام بتسليمها اليّ.

«خذ يافرانسوا، فهاهما مسدساك سوف تحتاجهما حتماً ثانية».

«وكم هي حاجتي اليهما!».

وكم من المرات فكرت بخيانته ورسم الطريقة التي سأقتله فيها. في الاقل مائة مرة. والان يقف ساريل امامي ويعطيني السلاح تماماً للقيام بهذا العمل الذي فكرت به. أخذت المسدسين، وكانا محشوين. كان ساريل مايزال يضحك، وبدا وكأنه فخور بحق بنفسه.

ياللعار! لقد أراد بهذه العملية المنقذة القيام بشراء نفسه. هذا الامر يجب أن ينجح فيه! وكان عليّ في الواقع أن اطلق عليه النار فوراً فلماذا أقف هكذا الآن، واكتفي بهز المسدسين في يدي؟

أجاب ساريل: «كان قراري.... عندما أفهمت العبيد الذين تم وضعهم في قارب النجاة بواجبهم، كانوا قد تفاجأوا تماماً مثلك».

«اذن، كان ذلك هو أنت؟».

«بالتأكيد. لقد قمت بفتح الطريق.. وكان عليهم أن يخرجوا فقط من القارب، وازالة القضبان الحديدية من على أبواب السجن. وبعد ذلك..».

«ولكن...».

بدأ بعدها وجهه بالتجهم. وحدّق بالمسدسين المصوبين نحو بطنه وقال: «أهاه! لقد أصبح واضحاً لديّ

ما قمتم بالتفكير به، أنت ياعصفور الشؤم، وآيزن آرم، وايفز، وآين أوگة، عندما قمت بخيانتك. لكن كان عليّ أن..»

تقدم بعدها خطوة نحوي، وبحث عن نظراتي.

«كان عليّ أن أنقذك يافرانسوا، وأنقذكم جميعاً، وحتىٰ العبيد معكم».

«ان عاجلاً أو آجلاً، كانت ثورتنا ستنجح. ياقامبا..»

«كلا، كلا! لقد قلت لك مرة على سطح السفينة، بأن الثورة حينها هي مجرد عملية انتحار. وما كنتم ستستطيعون الوصول الى المؤخرة من أجل ان تتسلحوا. وكنتم ستنكشفون بوقت مبكر».

«ولماذا؟ عندما قمنا بمفاجأتهم..».

«كلا، يافرانسوا، كان ذلك مستحيلاً. كما انك تعرف حتماً البراميل الموضوعة عند السارية الكبيرة والسارية الخلفية. انظر الى ماهو موجود في داخلها».

لذا فقد رفعت غطاء أحد هذه البراميل السرية الى اعلىٰ. فوجدتها مليئة بالمسامير، المسامير الكبيرة برؤوس حادة ومدبّبة..

«ان البحارة في سفن الرقيق يعرفون كيفية التعامل مع هذه الامور. وكان لدىٰ الحراس تعليمات لرش سطح

السفينة بهذه المسامير بشكل مكثف لدى أقل حالة انذار.
وبامكانك تصور الحالة بعد ذلك فضلاً عن أن بعض
طلقات البنادق أو صلية واحدة فقط..».

أخذت بعضاً من تلك المسامير ووضعتها على كفي
وجعلتها تتراقص عليه. هذا السلاح الخطير اللعين.
وبذلك كانت أعظم خطة أو اكبر ارادة ستفشل. وكان
المصير الذي لاقاه باديت يستحقه تماماً. وساريل؟ علي أن
أعترف بانه قام حقاً بانقاذ حياتنا جميعاً، وأدخلت
المسدسين في حزامي.

«ولكن في الاقل ياساريل كان عليك أن لا تقوم بخيانتنا،
وكان بامكانك اخبارنا عن هذه المسامير اللعينة».

«وبعد ذلك؟ ماذا كان سيحصل لخطتنا؟ لقد قمت
باستخدام عقلك! فالعبيد في قارب الانقاذ.. كانت تلك
فكرة جيدة. ولكني أيضاً كنت مدركاً لموضوع المساعدة
من الخارج ومنذ مدة طويلة عندما ستنجح ثورتنا. أفلا
تتذكر البحار على ظهر سفينة (أنجلين). والذي قام زميلنا
أين أوكة بكسبه الى جانبنا كصديق؟».

- «نعم، نعم، هذا صحيح كله. ولكن، ياساريل، لقد
حاولت أنا تقليد لهجة باريت الوحشية، وأنا لا استطيع
نسيان قيامك بجلدي بالسوط».

- «كان عليّ ان أموّه على الانكليز وتطمينهم. وقد رجوت
حينها باريت للسماح لي بذلك العمل».

- «وتقوم بتوجيه الضربات الاخيرة لي، لكونها تؤلم
كثيراً، أهكذا».

- «صحيح، ولكن المرء يفقد وعيه في الجلدة العشرين.
وقد علمت أنا، بأنك سوف لا تشعر حينها بالالم. ماعدا
ذلك فقد كان من الواضح لي بأنك لم تتمكن من رؤيتي..».

بعدها تصافحنا..

واثناء القتال لم ينتبه أحد لسير السفينة وقيادتها.
ومن خلال الرياح والتيارات كنا قد انجرفنا بنحو قوي.
وعند غروب الشمس قمت أنا بتنظيم وتحديد موقعنا. وفي
الساعات الاخيرة من الليل كان الوضع رائعاً على ظهر
السفينة. إذ أن عوائل كاملة تم جمع شملها ثانية بعد ان
فُرقت. وكان البكاء والضحك يختلطان لدى البشر في هذه
السفينة. وكان ذلك أروع عيد شهدته في حياتي.

وحسب اقتراحي كان قد تم حبس ساندوفال في قمرة
القبطان لحمايته من العبيد الثائرين. وبالتأكيد فان
رغبتهم في الثأر كانت قد هدأت في غضون الوقت المنصرم.

وقد أوضحت لقامبا قائلاً: «بقي بحار واحد فقط على
قيد الحياة من أصل (٢٨) بحاراً. ألم يكن بامكانك منع

ذلك؟».

«لقد حاولت وبشتىٰ الطرق، ولكن..»

«من الذي سيقوم بالمناورة الآن؟ من طرفنا فان ستة أشخاص فقط بامكانهم التعامل مع الأشرعة. ومع ساندوفال سيكون عددهم سبعة، وهذا ما لا يكفي بأية حال. صدقني، ان حصلت عاصفة فجأة، فسوف نتورط ورطة كبيرة».

«بالتأكيد إن اخواني جميعهم راغبون بالعمل على ظهر السفينة. وما عليك أنت إلا التأشير لنا، لنقوم لك بالاعمال التي تريدها».

عصفور الشؤم قال: «لديه الحق، حتىٰ وقتنا هذا كانت جميع طواقمي تتألف من عبيد تم تحريرهم، وهم يعملون بنحو جيد دائماً».

«وكم من السفن فقدت، ياعصفور الشؤم؟».

قال آيزن آرم مقاطعاً: «ياجماعة لا أعتقد ان الوقت هو للشجار الآن؟» واضاف: «انا اتفق مع رأي عصفور الشؤم. وبامكاننا اختيار احسن الرجال وأقواهم بين العبيد والقيام بتدريبهم ليصبحوا بحارة».

«حسن، اتفقنا!».

قال قامبا متسائلاً: «كان علينا أن نبقي باريت على قيد

الحياة، أليس كذلك؟ فسفينة بلا قبطان..!».

«لابأس، ياقاما، وسوف نجد قبطاناً آخر محله. وسنقوم بانتخاب أحد منا لهذا الموقع». قال ذلك آين أوكة مطمئناً إياه.

قمنا بعدها برمي أوراق الانتخابات في احدىٰ الجرادل. وقام آيزن آرم بقراءة النتيجة: صوت واحد لعصفور الشؤوم، وصوت آخر لنفسه أيضاً، وأربعة أصوات لي. وهذا الموضوع لم ادخله في حساباتي. لقد أصبحت فجأة قبطانا لسفينة العبيد.

كان واجبي الجديد أسهل كثيراً من واجب طبيب السفينة. لذلك قمت باعطاء الامر التالي: يجب اعادة السفينة الى وضعها الطبيعي. أثر ذلك بدأ الجميع بالعمل وظهروا وكأنهم خلية نحل واحدة على ظهر سفينة «كيلّارني». أما عصفور الشؤم وآيزن آرم، فانهما قاما بتأهيل حوالي (٤٠) رجلاً قوياً للاعتناء بامور السفينة مستقبلاً، وذلك لأننا كنا نحتاج الىٰ مجموعتي حراسة في الاقل. آين أوكة قام اضافة الى ذلك بترتيب قائمة دقيقة تحوي المواد الغذائية، والاشياء الثمينة الموجودة على ظهر السفينة. وبغض النظر عن المواد الغذائية الاعتيادية، فقد كانت هناك بعض المفاجآت السارة.

«عندنا كمية هائلة من فول الصويا».

«أما أنا فاعتقد انه لن يكون بالامكان اكل هذه الكمية أبداً!».

«وأنا كذلك. ماعدا ذلك، هناك برميل من الرز، وكمية كبيرة من الذُرة، والقرنفل، وزيت الزيتون..».

«جيد، ولكنه ليس عظيماً! وحالما نشاهد الجزيرة الاولى، نبحر الى اليابسة، وننزل هناك لشراء بعض الاشياء الاخرى. واعتقد بأن هذا الامر سيلائم الجميع».

كلف ڤامبا لنشر هذا الخبر الجديد. وتم تلقيه بصيحات الفرح.

في البداية كان ساريل يقف باستمرار خلف عجلة القيادة، وذلك لتجنب قيام العبيد بالانتقام منه جراء خيانته. إيڤز راقب التنظيف الاساسي لكل جوانب السفينة وللاماكن التي كانت تسجن فيها النساء والاطفال. وعندما تم انجاز كل شيء وعادت الامور الى نصابها، أوعزت بحرق خليط من الراتنج، والبارود والبخور والحامض لتعطير الاجواء على سفينتنا ثانية.

مترجمنا ڤامبا، كان موجوداً في كل مكان ويساعد الجميع، ويسمع قصص وحكايات مطولة من النساء،

وينصت أيضاً الى شكاوى الرجال. وكانت مكانته ذات فائدة لنا.

ولم يكن من الامور اليسيرة السير في البحر الكاريبي من دون طاقم مدرّب وجيد. وفي صباح اليوم التالي احتفلنا بعيد خاص من نوعه. إذ قمنا بالقاء جميع السلاسل والمواد المستعملة، وكل شيء يذكرنا بتجارة الرقيق في البحر. ولم يتعد ذلك العمل اكثر من كونه عملاً رمزياً قام باراحتنا كثيراً على الرغم من علمي بأنه تبذير. وكان بامكان أحد الحدادين الجيدين أن يصنع من تلك الحاجات كل ما هو مفيد لمجمع سكني كامل. ولكن على الرغم من كل ذلك، فان هذا الامر كان يجب أن يحصل! أنهينا احتفالنا ذلك بتعميد السفينة. وقمنا كذلك بخلع اللوحة التي كانت تحمل الكلمتين «كيلّارني، ليڤربول» من مكانها، والقيناها كذلك في البحر وراقبنا كيفية تلاشي حجمها في الماء خلف السفينة. ومعها تلاشت جميع ذكرياتنا المؤلمة. والآن اصبحنا نحتاج لاسم جديد للسفينة.

آيزن آرم تساءل: «أي اسم نقترح ياقبطان؟»

«انا اقترح اسم.. ليبرتي، وهذا يعني الحرية!»

«فلتعش!».

«مقبول هذا الاسم!».

«حسن، ياسادتي، وانا ارحب بكم جميعاً على ظهر سفينة «ليبرتي»!»

شربنا نخب هذه المناسبة من وسكي باريت. (عسىٰ ان تصل روحه الى الخالق! وعسىٰ أن يلحقه جميع تجار الرقيق الاخرين قبل بزوغ القمر الجديد!)

وفي مقدمة السفينة كان الثوار يرددون الاغاني، وكنت أنا سعيداً. سفينتنا كانت مصنوعة بشكل خفيف، وكان مسارها جيداً، وهي مجهزة باللوازم التي تساعدها على ذلك المسير. وكانت بعض الخصوصيات في هذه السفينة تتطلب المراقبة الدائمة لاسيما في الرياح العالية أو الامواج الشديدة.

قلت بعدها لعصفور الشؤم وآيزن آرم: «علينا الاسراع بتدريب الرجال ليصبحوا بحارة! وسيكون من المستحيل لنا الآن استخدام كل الأشرعة ان أردنا.».

قال لي ڤامبا مذكرّاً: «ياقبطان علينا العناية بمرضانا! فاحدهم لديه...» اومأت له برأسي. ففي خضم كل تلك الاضطرابات نسيت عملي وواجبي كطبيب للسفينة. ركضت الى القمرة التي كان يسكن فيها سترونگ سابقاً، ووجدت كل الامور مرتبة ترتيباً جيداً. كذلك كانت توجد

هناك حقيبة سفينة. فتحت غطاءها وأثارت اعجابي. ضمن مفهومهم في التنظيم والحصول على النقود، فان الانكليز فكروا بكل شيء يمكن أن يخدم صحة الطاقم والحمولة الثمينة على وجه الخصوص.

وكانت امامي تشكيلة كاملة من العدد والادوية، عدد مفيدة للاستخدام. وكانت هذه تكملة للشيء القليل منها، التي كنت استخدمها مع السجناء سابقاً. ولا يمكن مقارنتها بأي شكل من الاشكال مع العدد المتوفرة لدىٰ المساكين من الحلاقين أو الناس البسطاء ممن يتوجب عليهم معالجة الناس، أو ممن هم اطباء على الورق فقط.

مرت يداي على الكنوز غير المتوقعة، والتي كانت ستكون ذات فائدة قصوىٰ لي مرة اخرىٰ: إبر مختلفة، ومنشار كبير مع آخر احتياط، ومثقب للعظام، وعدة للتعقيم ومواد اخرىٰ لم أفهم كيفية استخدامها. وقرب هذه الحقيبة كان دفتر مذكرات سترونگ المفتوح. وبالتأكيد فانه كان يثبت أسباب وفاة مرضاه يوماً بيوم. قلبت أوراق الدفتر بسرعة. وفي الصفحات الاخيرة بحثت عن اشارات ربما تدلني على مرضه هو، ولم أجد شيئاً أبداً. فالامور حصلت بسرعة وانتهت بشكل أسرع. ولم أتمكن البقاء اكثر قرب الدفتر. فالغناء والصياح كان

ينبعث من على ظهر السفينة، وبعدها الركض والضرب على الالواح. ولكن لم تكن هناك أعمال عنف الآن على السفينة، بل كان ذلك من ركض ولعب الاطفال على ظهر السفينة. ثم وضعت دفتر سترونگ على جهة، وأخذت الادوية التي كنت سأحتاج اليها. وأردت كذلك نسيان الماضي. وفجأة سمعت أصواتاً عالية من سلة الرصد، ثم ارتفع صوت مشترك من على ظهر السفينة.

ـ «الأرض أمامنا!» صاح ڤامبا بوجهي وأضاف: «لقد تم انقاذنا، وبورك عملك، ياقبطان! وملاحتك كانت تسير بنحو صحيح».

ـ «شكراً! وهل بامكان «بحارتك» الآن المناورة جيداً لايصالنا الى اليابسة»؟

ـ «أعتقد ذلك!».

«وأنا آمل ذلك أيضاً!».

وبدا لي كأن الارض كانت تسحب سفينتنا بمغناطيس خاص. وكانت دائماً تقترب منا وضوحاً بين ذرات الضباب. كانت تلك جزيرة صغيرة فيها نخيل على الساحل المنبسط الذي تحميه بعض الصخور البيض. ولم يكن من اليسير الوصول الى تلك الأرض، إذ كانت محاطة بالصخور البيض الممتدة الى عمق البحر. لذلك السـ

فقد قمت بالقاء المرساة على مسافة من تلك الصخور، لأنني لم أرغب في إضاعة الوقت في المناورة ليحل علينا الظلام فجأة.

تساءلت مع نفسي عن المفاجآت التي يخبئها لنا صباح اليوم التالي؟ وأجبرت نفسي على عدم التفكير بها واستسلمت للنوم.

ولم أحلم بأي شيء في تلك الليلة.



جزيرة التحرير:

«انتبه ياقبطان! صخور أمامنا!».

وبحركة قوية من المجذاف تمكنا من تجنب صخـرة مرجانية كانت تحت سطح الماء مباشرة.

قال ايفز: «اللعنة! في ثانية واحدة كنا سنغرق لولم نر الصخرة تلك».

وكان هناك القليل من الرياح. لذلك فقد دُفعنا من قبل موجة سريعة الى احدى الضفاف المليئة بالصخور، والتي امتدت الى مسافة اكثر من ميل داخل البحـر. أصبحنا قريبين جـداً من ذلك الجـانب بحيث لم يكن بالامكـان الالتفاف حوله. وازداد التوتر بيننا. فهل ستتحطم سفينة (ليبرتي) على مسافة أميال قليلة فقط من ساحل الانقاذ؟ ولم أدع أعلام تأشير الرياح تذهب عن عيني، وكـانت ترفرف بشكل خفيف بعدها سمعت آين أوكة وهو يردد اغنية:

كورسيكي سانت ـ مالو

طرد البريطانيين من على البحر

ارفعوا الأشرعة.. ارفعوا..

أصـوات ايفز، وآيـزن آرم وعصفور الشؤم قـامت بالتوافق مع تلك الاغنية. وكانت تلك هي طريقتهم لاثبات اخلاصهم لي. ساريل كان يقبض بعصا القيادة وهومتوتر تماماً. وكأن اغنية رجالي كانت قد نادت الرياح لتهب فوراً وكانت تلك الرياح كافية لـلابحار حـول الصخور تلـك بسلام.

بعدها تنفست الصعداء.

«اتجهوا صوب اليابسة!».

قام ساريل اثر ذلك بتطبيق أمري. وقد اكتشفت بعض الفتحات في الصخور. وكانت الامواج ترتطم يميناً وشمالاً محدثة ضجيجاً كبيراً عندما مررنا من قربها. بعدها أنزلنا الشراع وبسرعة، ثم القينا المرساة ووقفنا. كان حينها العرق يتصبب من عموم جسمي. وشكل الجزيرة كان جميلاً مثلما شاهدناها من على بعد. وحيث ان الجميع كانت لهم الامنية نفسها، أي الوصول الى اليابسة بأسرع وقت ممكن، فقد وجهت بعض الاوامر المهمة:

«ضعوا السلاح في القوارب! ولا تحملّوها كثيراً! النساء والاطفال آخر من يغادر السفينة. الاوائل يأخذون معهم السيوف والسكاكين، ونحن نأخذ معنا البنادق والمسدسات».

كان علينا أن ننتبه لسلامتنا. وحتى القباطنة الفرنسيون في الاسطول الفرنسي يطأون اليابسة «المقفرة» مع أعلى درجات الحذر! وعلى الرغم من العلاقات الجيدة نسبياً مع سكنة الجزر، فانهم لم يتخلوا عن حذرهم معهم. وكان يتم التعامل والأسلحة مشرعة. وكنت أنا بين المجموعة الاولى التي وصلت اليابسة. وكان الساحل خالياً من البشر. اثنان من السلاحف كانتا تسيران على الرمال، ودفعتهما غريزتهما للتوجه فوراً الى

البحر. بيد أن ذلك لم يكن امراً هيناً أمام الامواج المتلاطمة على حبات الرمل. ولكن عنادهما فقط هو الذي أوصلهما الى الماء في النهاية. زوارقنا كانت تسير واحداً خلف آخر وعلى بُعد مسافات قريبة. رجوت من (ڤامبا) أن يقوم بالاستطلاع في الساحل الشمالي. واخذوا معهم السيوف. أما آيزن آرم، فانه كان يستطلع غابة جوز الهند في الجنوب. أما الآن فقد كان كل شيء هادئاً على الجزيرة حسبما يبدو.

والشيء الذي لحظته في السلحفاة، بدا لي مثل الاحدوثة، فعلينا نحن البشر أيضاً أن نكافح من أجل الحياة، وهذا الامر نتوصل اليه تقريباً.

ولكن وفي كل مرة يظهر فيها الاقوى ويهددنا من جديد.

وعلى الساحل ابتلعت بعض بيض السلاحف. وعلى عكس بيض الحيوانات الاخرى فانها لا تفسد أبداً. ويكون طعمها أطيب عندما يكون في داخلها صغير. هذا الامر يبدو مقززاً، لكن الجوع يدفعنا أحياناً لعمل أشياء نتصورها مستحيلة.

وكان قد سبق لي أن وجهت أوامري بابقاء عشرة رجال للحراسة على ظهر السفينة، وابقاء جميع المواد الغذائية هناك أيضاً. وقمنا بتشكيل مجاميع قتال تتألف من (٥ -

٦) أشخاص. ماعدا ذلك فنحن نحتاج الى الماء. النساء والاطفال يقومون بجمع الاخشاب. إذ لابد من بناء الاكواخ للحماية من الليل وظروفه. وكان أضعف الرجال يتولون حراسة البناء. المساكن يجب أن تكون قريبة من بعضها الامر الذي يسهل أمر الحماية والدفاع. ويوم غد سنندفع اكثر في داخل الجزيرة، لنرىٰ..».

سأل ساريل: «كم سنبقىٰ هنا؟».

«ثلاثة أسابيع في الاقل، وربما أطول قليلاً. فنحن نحتاج للوقت لكي نرتاح. أما السكن على الساحل، فهذا أمر لايمكننا القيام به. وسفينتنا لن تتمكن من مقاومة الديدان والأوساخ الاخرىٰ مدة طويلة».

كانت الجزيرة هذه جنة للعصافير. وقد اكتشفنا الببغاوات والطيور الملونة على مسافة ليست بعيدة عن الساحل. وعندما أردنا قطف بعض الثمار، أخفنا سرباً من العصافير الاستوائية الملونة ورأينا أنواعاً اخرىٰ مختلفة منها. كان منظرها رائعاً وهي تطير. وكنت لا ترىٰ شيئاً في جسمها يتحرك، وعلى الرغم من ذلك فهي أسرع المخلوقات الطائرة. ويسمى البعض من تلك الطيور بـ(الفرقاطة). ويقول عضفور الشوم ان تسميتها وردت لأنها أسرع من الطيور الاخرىٰ. وربما كان لديه الحق

بذلك.

وعلى الساحل وجدت بيضة لاحد الانواع من الطيور التي لم أعرفها. وعندما أردت أن انزع قشرتها لم أتمكن، اذ كانت بصلابة الصخر. وربما كانت الحرارة هي التي فخرتها في الرمل الساخن. ومن دون أن اكلف نفسي عناء التفكير وضعتها في أحد جيوبي.

وأثناء أمسيتنا الاولى على اليابسة، جاءني أحد اليافعين وهو بعمر عشر سنوات. وكان يحمل ثلاث جوزات هند رائعة في يديه وسلمها اليّ. وحينها قال لي قامبا: «خذها! فهي هدية العبيد المحررين». ثم أخذت الفاكهة منه وقلت: «شكراً، شكراً».

بعدها نظرت الىٰ اليافع الاسود. وحتما كان لديه اسم ما، ولكن أي اسم؟ وحيث اني لم اعرف اسمه، عمدته بأسم جوز الهند.

«شكراً، ياجوز الهند!».

قام الجميع بالتصفيق عندها. وبضربة سيف واحدة، قمت بفتح الجوزة وشربت حليبها المنعش. وفي مكان ليس ببعيد عن الساحل أشعلت عدة نيران. فالرجال والنساء والاطفال قاموا بأكل كل ما تصل اليه أياديهم من ثمار، وبيض، وطيور.. وعندما حل الظلام. قمنا بمسك عدد كبير

من الطيور التي تستسلم سريعاً في الظلام. وكانت هذه الطيور شبيهة بالبط لحد ما، ومناقيرها منشارية تساعدها في صيد الاسماك.

كان الليل رائعاً، والسماء مزروعة بالنجوم. وكانت أصوات مياه البحر تسمع من على بعد. وبأصوات قوية كانت جبال الموج تتحطم عند الساحل. أصحاب (ڤامبا) بدأوا بالرقص حول نار المعسكر. وقد شعرنا حينها وكأننا نعيش في جنة.

ثم قلت لآيزن آرم: «علينا أن نراقب طرف الغابة طوال الليل. وحيث اننا لم نكشف أو نتحرىٰ الجزيرة كاملة، فأنا لست واثقاً تماماً...».

«لديك الحق ياقبطان. فعلينا أن نكون حذرين..».

تمددت بعدها بطولي على الارض. والبيضة الصلبة كانت تضغط على أعلىٰ فخذي ولذلك قمت باخراجها من جيبي. ثم خطرت لي فكرة. فقد قمت برسم دائرة سوداء واخرىٰ زرقاء على البيضة. بعدها صحت منادياً آين أوگة (الاعور) وقلت له: «اسمع يازميلي، بامكانك ان تنزع القطعة الجلدية الآن عن عينك. وهنا عندي عين بديلة لك، الىٰ جانب كون هذه القطعة الجلدية غير لطيفة!» أثر ذلك ضحك الجميع بصوت عال مدة طويلة. آين أوگة هز رأسه

استطيع تجربتها الآن؟».

ثم بصق عليها آين أوگة وقام بتلميعها وتنعيمها، بعدها قام بدفعها الى تجويف عينه. ثم بدأ بتحريك أهدابه عدة مرات للتجربة وللتعود عليها. كانت النتيجة عجيبة تماماً، اذ ظهر (الاعور) وكأن عينيه الاثنتين طبيعيتان تماماً.

وقال أثر ذلك متعجباً: «يجب علينا أن نشرب نخب ذلك يازملاء. وان وجدت مثلها على الساحل ياقبطان، فبامكانك ملء فمي بها!».

«أعرف شيئاً أحسن منها لك. فاسنان القرش تليق بفمك بنحو أفضل».

وفي صباح اليوم التالي خرجنا للصيد. تركت آيزن آرم ليتولىٰ حراسة «سكان القرية». ڤامبا وعشرة من رجاله قدموا معي، ومعهم أيضاً إيفز وساريل. وتغلغلنا الى داخل الجزيرة، في الوقت الذي أراد الآخرون تحري الساحل تماماً. وبعد أن سرنا في الاحراش مدة، وصلنا الى منطقة واسعة خالية من الأحراش بسبب حريق غابة سابق. والاحراش كانت قد نبتت مجدداً، واحدىٰ الاشجار العملاقة، التي سبق أن نالت منها النار، بدأت

هناك قطيع من الثيران الوحشية يرعى.

«ولم أر قطيعاً بهذا الحجم في تورتوگا او سانتو دومنيغو».

«ربما ، ولكننا لا نحتاج الى كل القطيع لكي نشبع تماماً ، اذ يكفي أن نأخذ منه اثنين أو ثلاثة ثيران .»

قمنا بالاقتراب بحذر من القطيع . فرفعت الثيران رؤوسها . ووقفت بهدوء وكأنها تنتظر أمراً . وفجأة ابتعد القطيع عنا وركض لغاية حافة الغابة .

ساريل أوضح : «لقد خافت الثيران منا .»

«خافت ؟ انظر اليها الآن ، انها تهاجمنا !»

وارتفعت عاصفة من الغبار ، بعدها قدمت الحيوانات مسرعة باتجاهنا ورؤوسها نحو الاسفل ، وأفواهها تكاد تمس الأرض . أما وقع حوافرها ، فقد بدا وكأنه صوت الرعد . ثم بدأت الارض ترتجف تحت أقدامنا .

عندها صاح إيفز : «اسرعوا الى الغابة !».

«لا نستطيع القيام بذلك،» كان ردي على ليفز وأضفت : «وسوف تدوسنا قبل أن نستطيع الوصول الى الغابة . عليكم بجذوع الأشجار المتبقية فهي احسن ملاذ لنا!»

ولم يكن لدينا خيار آخر، ما عدا ذلك فان الوقت كان

للرعب. وقامت الحيوانات بسحق أي شيء كان في طريقها. وفقط جذوع الاشجار تمكنت من مقاومة زحفها. وقد اندفعت الحيوانات باتجاهنا مثل اندفاع المياه المهددة التي لا يقاومها أقوى سد. وانقسم القطيع أمامنا الى نصفين ليعود ويلتقي بعدها معاً.

«لقد نجونا!» صاح ساريل بأعلى صوته فرحاً. ولكنه توهم، اذ أعاد القطيع الكرة عند وصوله حافة الغابة من جديد. وقد إحتمينا بالجذوع المتفحمة وصوبنا بنادقنا نحو القطيع. بعدها وجهت أوامري باطلاق النار في اللحظات الاخيرة فقط، اذ أن بنادقنا لم تكن بقوة بنادق صيادي الثيران. وبعد ثوان قليلة انطلقت بنادقنا الثلاث في اللحظة نفسها، ولم يحصل شيء. ويبدو أن طلقاتنا لم تصل الى أي من القطيع المهاجم امامنا. وبهذا الخصوص كان بامكاني أن أقسم بأني لم اخطيء هدفي أبداً.

صاح ساريل بقوة: «انظروا ما هناك!».

ان الثيران الثلاثة كانت اصاباتها مميتة، وعلى الرغم من كل ذلك فقد كانت تركض بسرعة مع بقية القطيع الذي حشرت معه وكأنه يحملها. وبعد مسافة من الجري سقط

في اتجاهات مختلفة، لا يلوي على شيء سوى الهروب والنجاة. ثم اختفت الحيوانات جميعاً في الغابة. قلت لزملائي: «لقد نجونا مرة اخرى».

قال ڤامبا متسائلاً: «ما رأيكم بالطعام؟».

«لا تدعوا شيئاً يعيقكم! فهذا الطعام يختلف عن شوربة الفول الدائمية على السفينة! أليس كذلك؟».

الرجال لم ينتظروا الرجاء الثاني. وبضربات قوية بسكاكينهم، قاموا بتقطيع أوصال الحيوانات.

وفي المساء كان هناك في معسكرنا طعام احتفالي من نوع خاص. والبعض من جماعة ڤامبا، ومن قبيلة (ماندنيگو) قاموا بصنع النبال واصطياد بعض القرود بوساطتها. وكان طبخ اللحم قد انتهى، ومذاقه بدا رائعاً. وما أعجبني من الطعام هو اللحم المشوي الذي لن أنساه أبداً. وأخيراً قام ساريل باعداد طبخة لنا من لحم الثيران مع خليط من القرنفل وعصير البرتقال والليمون. وكان يوجد على الجزيرة كميات هائلة من العصير الليمون. وليمتنا الكبيرة استمرت ساعات طوال في الليل. وبعد أن غنى الرجال ورقصوا رغبوا في النوم فقط. لذلك فقد استلقوا قرب النار ليرتاحوا قليلاً، وقد جلس ڤامبا بالقرب

ثم سألني قائلاً: «ما اسم هذه الارض هنا؟».

«لا أعرف، وربما تحمل اسم احد الاسبان الذي اكتشفها».

آيزن آرم قال: «هذا امر لا جدوى منه، وعلينا أن نطلق تسمية جديدة على هذه الجزيرة!».

وكان محقاً بذلك، إذ لا يمكن للمرء أن يتحدث عن شيء ليس له اسم معروف وملائم بنحو عام. وبالطبع فان هذا الامر لم يكن صعباً بالنسبة لي في القيام باقتراح اسم لطيف لڤامبا، هذا الاسم الذي يعبر عن جمالية هذه الجزيرة الرائعة. وبالطبع فان هناك ما هو أحسن. واسم واحد في مخيلتي هو الذي ينطبق فقط على هذه الجزيرة.

«لنسمّها (جزيرة التحرير)».

حينها انفتحت أسارير ڤامبا عن ضحكة أنارت وجهه.

«حسن! وسوف أقوم بترجمة هذا الاسم لأخواني، وتوجد كلمة ملائمة لهذه التسمية في لغتي!».



المد لا ينتظر:

كان (جوز الهند) طفلاً جميلاً وسعيداً، ويصغرني بقليل من السنوات. الا انه على الرغم من ذلك كان يجد في ذلك الرجل الكامل المتحمل للمسؤولية. وكانت الكلمات الوحيدة التي تعلمها بالفرنسية هي: «نعم قبطان»، «كلا

شكله سميناً مدوراً. اسمه الجديد ينطبق الآن على مواصفاته. وكان يظهر باستمرار أسنانه اللامعة، لأنه كان يضحك دوماً. هذه الضحكة كانت بالنسبة لي أحسن علامة لمجازاة الاحسان. انقضت الايام والاسابيع بسرعة فائقة. وعاد الرجال والنساء والاطفال الى قواهم الاصلية، واستردوا صحتهم. وكانت الفرحة والانطلاق تخيم على كل مكان. ولم يشعر أحد بالتهديد أو الخطورة. أما طغيان الرجال الذين كانوا يأسرون العبيد من أجل بيعهم لتجار الرقيق، فقد نُسي تقريباً. وعلى الجزر ينقضي الوقت بسرعة اكثر مما عليه في أماكن اخرىٰ.

كذلك فان الامراض اختفت هي الاخرىٰ. فمرض الاسقربوط، وحمىٰ السجون.. وأمراض اخرىٰ معها شفيت تماماً، وأصبحت الحالة الصحية أحسن مع مرّ الايام. وكان الفضل في ذلك يعود الى التغذية الغنية والصحية، وخصوصاً لحم السلاحف، والمعروف عنه طرد المزاج غير الجيد عندما يؤكل باستمرار. وكنت ألحظ دائماً مدىٰ العرق الذي كان يتصبب مني عندما اتناول قسماً من هذه اللحوم، وضرورة غسل الملابس بعد الانتهاء من الأكل لأنها تتمزق إن بقيت بالعرق المتصبب.

وفي تلك الايام قام الهنود الحمر بالهجوم علينا. وقاموا بمهاجمتنا في منتصف الليل. وفي الواقع فانه تم الانذار، لكن ظلمة الليل أدت الى نشوب قتال عارم. وفي الصباح أحصينا اثني عشر ميتاً، وجرحى كثيرين. أيزن آرم كان موجوداً في عموم أرجاء «قريتنا»، بعد أن أثبتت شجاعته الخارقة مرة ثانية.

وطرحت أنا السؤال التالي: «كم هو عددهم؟».

هذا امر يصعب تحديده. فهم يختبئون في الأحراش، وعند الهجوم يظهرون فجأة وبأعداد كبيرة. ولا أعرف ان كانوا هم انفسهم المهاجمون كل مرة، أم أن هناك عدة قبائل قامت بتطويقنا».

وعلى الرغم من كل ذلك فقد كنت مقتنعاً بأن عددهم لا يتجاوز المائة على أية حال. واثناء تجوالنا الاستكشافي كنا قد حددنا وجود أشخاص آخرين على الجزيرة غيرنا. ولكن لا يمكن أن يكون عددهم كبيراً.

ولماذا قاموا بمهاجمتنا؟ هذا امر يجب أن نتحراه بدقة عند بزوغ النهار.

ساريل أعلن قائلاً: «هناك مجموعة من الهنود تتجه صوب معسكرنا. فماذا علينا أن نفعل؟ أنطلق النار؟».

دعهم يأتوا!».

كانوا قلقين وظهر انهم يريدون التفاوض. وكان المتحدث باسمهم يتكلم بالاسبانية. رجوت أنا من ساندوفال القيام بالترجمة، وذلك لأن الكلمات القليلة التي كنت أعرفها بالاسبانية كانت لا تكفي.

ثم سألتهم بفارغ الصبر: «ماذا تريدون؟».

«انهم يعدوننا اسباناً ويمتنعون من أخذ «الماء» منا».

«الماء؟».

«نعم، فهم لا يريدون أن يتم تعميدهم».

هذا هو الموضوع اذن فهم يعدوننا من اولئك الرجال الذين يقومون بتعميد المواطنين قبل أن يتم استعبادهم وقتلهم بوساطة العمل في مناجم الذهب والنحاس.

شعرت حينها بميل كبير للضحك.

«عليهم أن يقتربوا ياساندوفال. وما عليهم أن يخافوا. أوضح لهم مَن نحن».

قام البرتغالي بعدها بالتحدث معهم طويلاً. وفجأة أصبح الحديث والنقاش محبباً اكثر.

«أخبرني ما الموضوع؟ وماذا يريدون؟».

«لقد فهموا، بأننا لا نريد استعبادهم. ولكنهم يقولون

بملء ارادتنا، فانهم سيعودون لتحطيم القـرية وقتلنـا جميعاً. وآلهتهم تقول..».

الآن دخلت الآلهة اذن في اللعبة. فمن أجـل ضمان الطمأنينة والهـدوء لقريتنـا، يجب أن يحصل أمـر غير اعتيادي.

«اسألهم، ياساندوڤـال، ان كانت آلهتهم أقـوىٰ من الهتنا!».

وقام ساندوڤال بطرح سؤالي وأجاب:

«انهم يقولون نعم».

«حسن! إسـألهم إن كـانت آلهتهم تمنحهم القـوة الكافية لاقتلاع احدىٰ العينين؟».

ثم تم استئناف النقاش الساخن بحماس. وأخيـراً اعترف المتحدث الاسباني بأن آلهتهم لا تستطيع عمل الكثير لهم في هذه الحالة.

أردف ساندوڤال قائلاً: «انهم يسألون عن كيفية قيام آلهتنا بهذا الموضوع؟».

«حسن!» أجبت ساندوڤال، وصحت آين أوگة.

«هيا، اخلع عينك أمامهم، ولا تنس إعادتها الى مكانها ثانية!».

الوصول اليه. وكان على آين اوگة أن يعيد الطريقة هذه ثلاث مرات بعد ذلك أمـام جميع الجمهـور من مقاتـلي الهنود. بعدها عقدنـا صداقـة معهم. ثم دعونـا لتناول شراب الـ (هون)، الذي يقومون باستخراجه من بعض أشجار نخيل الجوز في الجزيرة.

ثم تـرجم سانـدوڤال: «ان رئيس القبيلـة يقول، ان الجزيرة كبيرة وتتسع للجميع، لأننا لسنا من الاسبان».

شكرته أنا بوسـاطة عـلامة رسمتهـا بيدي لحسن ضيافته.

وفي صباح اليوم التالي تشاورنا مع (ڤامبا) بخصوص كيفية سير الامور لاحقاً. وقد تم الاقرار على نحو جماعي بأن جميع العبيد الذين كانوا على ظهر سفينة «كيلاّرني» بامكانهم السكن على هذه الجزيرة على نحو دائم. فالهنود لم يشكلوا أي خطر عليهم أبداً، والجو الصحي يمكن أن يسهم بتطوير القرية هناك على الجزيرة بشكل مشجع. بعدها قلت: «سوف أعود الى سفينة ليبرتي وبها الى سانتو دومنيغو.. وبالطبع ليس بامكاني المناورة وحدي والذي يرغب بالعودة معي، فأنا أرحب به على ظهر السفينة».

وكنت قد حسبت حسابي بأن زملائي لن يترددوا،

برحلة كبيرة. وما فاجأني هو رغبة ساندوڤال في البقاء على الجزيرة.

وعدد لا بأس به من البحارة السود رغبوا في الانضمام الينا، وبالطبع فأنا لم أترك جوز الهند أيضاً على الجزيرة. وقد وعدته بان آخذه معي. ومنذ ذلك الحين، كان في كل ليلة ينام في قواربنا التي تركناها على الساحل لكي لا ننساه عندما نبحر. أما ڤامبا فقد كان متردّداً، ولم أرغب بالتأثير عليه. وكان عليه أن يتوصل بنفسه الى الشيء المفيد بالنسبة له. وفي أحد الايام قال لي صباحاً: «لقد قررت أن أبقىٰ على الجزيرة!».

«نعم، ياڤامبا، هذا أمر جيد».

وتردد قليلاً قبل أن يكمل حديثه قائلاً: «ان اخواني رجوني لأن ابقىٰ معهم!».

«انهم محقون. إذ انك ستصبح رئيس قبيلة جيداً لهم. وسوف يكونون دوماً بحاجة اليك. وصدقني ياڤامبا، يجب عليكم ان تضعوا أمامكم دائماً وصول سفينة معادية لأخذكم سجناء ثانية».

«أعرف ذلك، وقد فكرنا دائماً بهذا الامر. وسيكون من الصعب الدفاع عن الجزيرة إن كان عددنا قليلاً».

والرصاص. وبالمناسبة فاننا لم نبحر بعد. وسوف يقوم آيزن آرم وإيڤز بتعليمكم كيفية استخدام البنادق مثل القراصنة الاعتياديين، ومثل شياطين البحر الحقيقيين».

عندها قال جميع القراصنة، ان أعظم قوة تأتي من الاتحاد والرفقة بين الرجال. قمنا بعدها بتقاسم كنوز السفينة بيننا. وكنا قد جلبنا معنا الى الجزيرة بوساطة قواربنا بالآت من الاقمشة المتنوعة من تلك التي اشتراها الانكليز في فرنسا، وعشرين بندقية، وعشرة براميل من البارود الجيد، وثمانية أكياس من الرصاص. أما المواد الغذائية، فكان يوجد منها الكثير على اليابسة. ثم قمت بتسليم ساندوڤال جزءاً من الأدوية، خاصة الدهن، والاكسيرات، والبلاستر، والاملاح، والبارود وبألوان مختلفة، فضلاً عن أنواع عديدة من العسل.

بعدها جلبنا الماء لسفينتنا (ليبرتي). وعندما أردنا رفع البرميل الأخير وبعناية فائقة كأنه برميل يحوي مشروب الروم النقي، رأينا بأنه كان مزيناً بالزهور والأوراق وأغصان الأشجار، وفوقه يجلس اثنان من السود الضخمين. وعدة مرات كادوا ان يسقطوا في الماء جراء الرياح. وعلى حبال وسلاسل الرافعات تدلت

أرسلها اخوان ڤامبا لنا كهدايـا. ثم أصبحنا جـاهزين للابحار في الرحلة. وكان ذلك يعني الوداع.

قررت أن أرفع المرساة في وقت مبكر من الفجر لكي لا أقع في الجزْرْ. وكان النهار قد انبلج، لكن السكون التام كان مايـزال يلف القريـة. استيقظ زملائي مبكـراً هذا اليوم. وقام كل واحد منهم بجمع حاجاته وسلاحه. وكنت اضع في حسابي أن يأتي ڤامبا ليودّعني ولأشد على يديه وليرافقني الى القارب، ولكني لم أره في أي مكان.

وبغصة في حلقي تجوّلت هنا وهناك وبـاعذار كثـيرة واهية لتأخير لحظة السفر التي رسمها لنا القدر.

بعـدها جـاء آيزن آرم وقـال بصوت واضـح: «هيا ياقبطان، لاتدعنا ننتظر اكثر. يجب علينا الانصراف قبل أن يأتي الجزر»..

«نعم. أنا أعرف.. حسن، هيا بنا اذن»! كنت حزيناً. وكنت أحس بقلبي وكأنه حجـر ثقيل. فڤـامبا لم يـأت لتوديعي. ولم يستيقظ أحد من العبيد الذين تحرروا لينظر الينا مودعاً من كوخه.

بعدها حاولت تمالك نفسي، والسيطرة على مشاعري وكتمها، واخفاء حساسيتي. وبصوت عال حاولت اعطاء

قرب منطقتنا التي كنا فيها. ثم ادخلت السكين في غمدها.

«الى الامام! ولا تنسوا ان هذا القارب لن يعود ثانية»!

بعدها ذهبنا نحو البحر. وللمرة الاخيرة استدرت لأرى القرية، ولكن السكون كان مايزال يلفها.

عندها قلت لنفسي بأني لن أترك ثغـرة كبيرة جـراء ضعفي على جزيرة التحرير» والمرارة في قلبي. كما اني وفرت أيضاً الوداع الذي يمزق القلب! وعندما صحوت من المبالغة التي كانت تدور في ذهني، ضحكت بصـوت عال، وأسرعت في خطواتي للحاق بزملائي. التفت ساريل نحـوي ليراني، وعنـدها كـانت المفاجـأة الكبرى التي تنتظرنا على الساحل. في ذلك الوقت ومع وصولنا تدفق السود من جميع الاتجاهات، من اليمـين والشمال، من شتى أرجاء الغابة ببطء وهدوء نحونا. وكانوا يحملـون المشاعل وايديهم مليئة بالهدايـا. وكان ڤـامبا، الـرجل الرائع الكبير بتقدمهم بيـدين فارغتـين وانظاره مثبتـة بوجهي. ثم ارتفعت اغنية بصوت عال. وبقـوة خارقـة مدوّية اجابته مئات الاصوات بلحن واحد. ومن دون أن افهم حتى كلمة واحدة، عرفت ان الاغنية كانت تدور حول السلام والحرية والسعادة والفرح. وكان الرجال والنساء

جميعا، قبائل (أشانتي)، والمانديكو المحاربون، وايبوس الذين لم يعودوا يفكروا بالانتحار.. واعتقد بانه لم يكن العرق المتصبّب ذلك الذي نزل الى عيني، ولا حتىٰ ذلك الدخان المهيج المنبعث من الشعلة. وعلى الرغم من ذلك كان عليَّ أن أدعك عيني، وانتابني الخجل قليلاً، لأنني كنت أبكي حقاً!

بعدها توقفوا عن الغناء، واقترب ڤـامبا مني اكثـر. وكان قد أعد ما يشبه بالكلمة التوديعيـة، لكن الكلمات جفّت على شفتيه. بقيت عيناه جافتين، لكني رأيت شفتيه وهما ترتجفان. ثم سكتنا. أما [illegible] بجهد كبير تمكنت من نطق بعض الكلمات، [illegible] هي نفسها دوماً: «شكراً! شكراً!».

خلع ڤامبا سلسلة القـواقع التي كـان يضعها عـلى رقبته، وسلّمها لي من دون كلمة واحدة. وبـاشارة منـه حضرت احدىٰ النساء الينـا، وكانت تحمـل وعاءاً فيـه خشب متقد. وفي تلك الجمرات كان يوضع خنجر قام ڤامبا باعطاء الخنجر لي. وكان النصل المصنوع من الحـديد الانكليزي الجيد يتقد وشكله أحمر وساخن.

«خذ هذا الخنجر وامسح الاثر الذي طبعه البيض على

جسمي!».

«هل عليّ أن..».

«نعم، وعندها سأكون حراً تماماً.. وأنت الذي يجب أن يقوم بهذا العمل!».

كانت عيناه مثبتتين نحوي. ولم أتمكن من ردّ طلبه. قمت على أثر ذلك بأخذ النصل المتقد ووضعته فوق المنطقة التي كانت الحروف قد ثبتت عليها فوق الفخذ وضغطت النصل عليها بقوّة.

وباصوات تصم الآذان قام الحشد بتحيتنا والهتاف بحياتنا. وبعدها بدأت الطبول تـدق مع سـائر الادوات الموسيقية، لكن الايقاع الذي صدر لم يكن هو نفسه الذي كان يرقص عليه الزنوج على ظهـر سفينة «كيـلّارني». فالموسيقىٰ كانت سعيدة ومفرحة وبألوان مختلفة. وبعد أن وضعوا هداياهم، من جوز الهند والفواكه، والقواقع، والقطع الكبيرة من اللحم المحمـر، وبيض السلاحف في القوارب، بدأ الرجال والنسـاء بالـرقص. وكان المنظـر مدهشاً، وقد استغرق وقتاً طويـلاً. ولم أتمكن من ترك المكان. عندها قام آيزن آرم بسحبي من ذراعي.

«والآن علينا أن نغادر، ياقبطان! فالمد لا ينتظرنا».

«نعم.. لنبق اكثر قليلاً! فأنا اريد أن اتذكر فيما بعد

كل الامور التي أراها الآن، فهل تعرف! انظر اليهم، فهم يرقصون فرحاً لتحررهم. وهم يشكرون بذلك آلهتهم».

«أنا أفهم مشاعرك، نعم، وأنا أفهمك جيداً. ولكني سأقوم بالابحار الآن. وعلى المرء ان يقدر في انجاز الوداع، ياقبطان».

«عندك حق! اذن هيا بنا!».

ولايام عديدة أبحرت سفينتنا، وكان اتجاهنا صوب الغرب وكانت المعنويات على ظهر السفينة جيدة. والاعمال التي كان يتهرب منها طاقم أية سفينة، تم انجازها بكل سرور من قبل طاقم سفينتنا. فليس أجمل بالنسبة للقرصان من الحرية التي ينالها في عرض البحار؟ وأمتن الروابط التي تتكون على اليابسة، وحتى امتلاك الذهب لا يعني بالنسبة له الشيء الكثير.

ولكني تركت جزءاً مني على «جزيرة التحرير»، جزءاً كبيراً. وعندما أشاهد مرة ساحلاً فيه أشجار الجوز وأعرف بوجود الصخور التي تحمي تلك السواحل، فاني أشعر حينها بأن قلبي يصبح ثقيلاً، حينها يتوجب عليَّ أن افكر بثوار سفينة «كيلّارني» الذين يغنون لي اغنيتهم كل صباح. وحالما فارقت أصدقائي اولئك، علمت بأني أصبحت شخصاً آخر من خلالهم.

«هل نغير اتجاهنا نحو ميناء بورت ـ دو پاي، ياقبطان؟».

قمت بالتأمل قليلاً، فالحياة تناديني لها ثانيه.

«بورت ـ دو پاي؟ سانتو دومنيغو؟ مع العبيد السابقين على ظهر السفينة، وبعد ذلك العصيان الدامي على سفينة (آنجليز) لم تكن لنا توقعات مفرحة للتحرك هناك كأناس أحرار مدة طويلة. وربما يكون المحافظ التابع للملك وسادة الشركة التجارية للهند الغربية بانتظارنا مع فرقاطة فيها (٥٠) مدفعاً على ظهرها. فهل قمنا بالقتال على ظهر سفينة كيلّارني من أجل هذا؟ ثم هبت نسمة هواء قوية. كان ساريل يقف عند المقود. ثم وجهت أوامري للتوجه نحو الشمال الشرقي، والاتجاه هو صوب تورتوگا، جزيرة الاحرار.

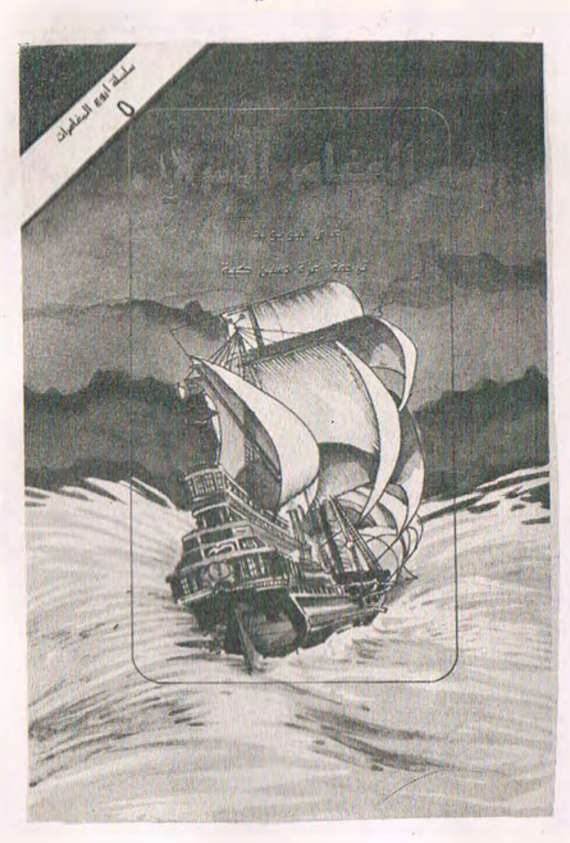
وبنشوة الجسارة التي كانت تتملكني، أردت الخوض ثانية في معارك جديدة مثيرة ومرعبة. كذلك فقد أردت أن أجد سلام البحر تحت السماء الواسعة، كما أردت أن أبقى حراً.

وقد أردت ان اسمع صفير الهواء مع اصدقائي الذين لم يتردّدوا لحظة واحدة من التضحية بذراع واحدة أو ساق من أجل انقاذ الصديق. وكالسابق كان صديقي

يتحدث اليّ عن الصداقة، وعن الجزر غير المكتشفة، وعن السفن المملوءة بالذهب من أرجاء العالم كافة. مع سفينة (ليبرتي) في عرض البحر، والجو جيد، ورائحة الملح في الهواء.. قمت عندها بالنظر الى مرافق يدي، وكانت مناطق ضغط سلاسل العبيد قد اختفت مثل صور أحد الاحلام الخبيثة. وعلىٰ ظهر سفينتنا انهمك الزملاء بالعمل وغنوا: «كورسيكي سانت ـ مالو».

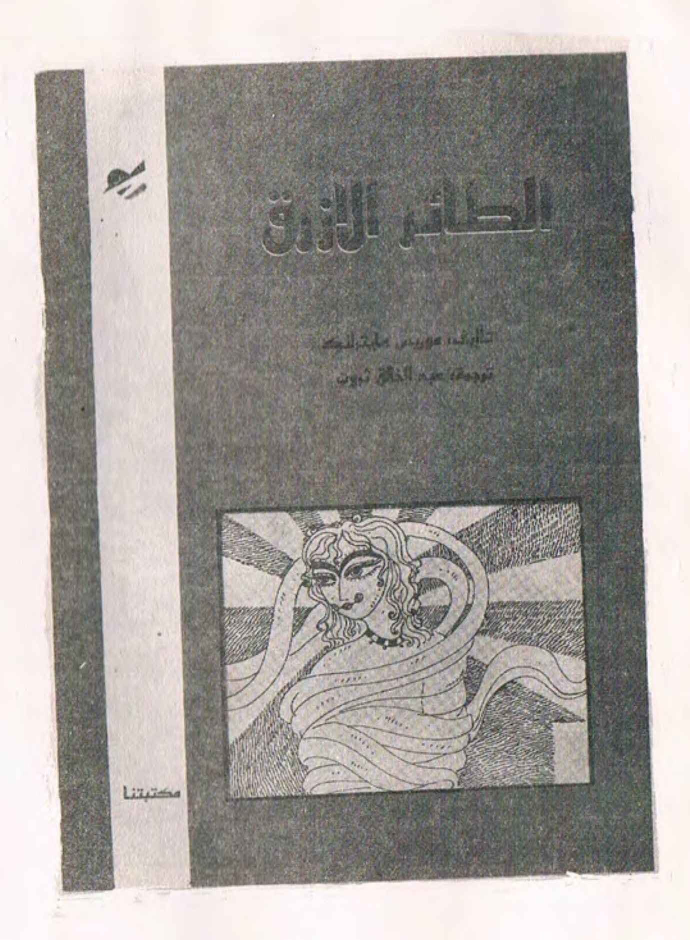
وشعرت بالوحدة حينها، فلماذا لم يكن قامبا الىٰ جانبي؟.

صدر حديثا




مغامرات
لاثاريليو دي تورمس
الكاتب مجهول
اقتباس: ماريا ايزابيل مولينا
ترجمة : مروان ابراهيم
دار ثقافة الأطفال
نصوص عالمية

7


الطائر الأزرق
مكتبتنا



دار الحرية للطباعة




أوَلُ إنسانٍ يَطير
السلسلة التاريخية
مكتبة الطفل . مكتبة الطفل . مكتبة الطفل . مكتبة الطفل . مكتبة الطفل


سلسلة
البراعم
أصدقاءُ المزرعَة

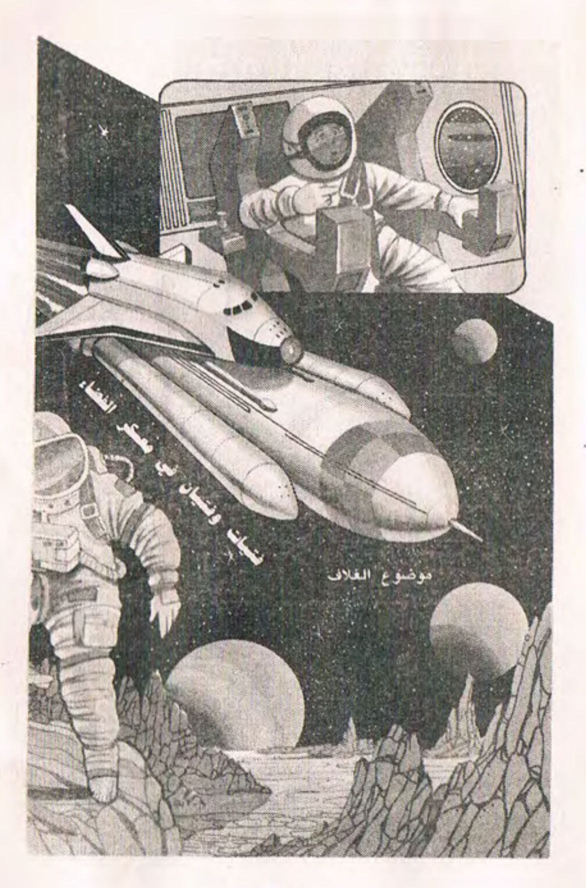

روايات
عالمية
للفتيان
صانعو
الدمى الثلاثة
تأليف : اورسولا لاموراي وليامز
ترجمة : أمل منصور

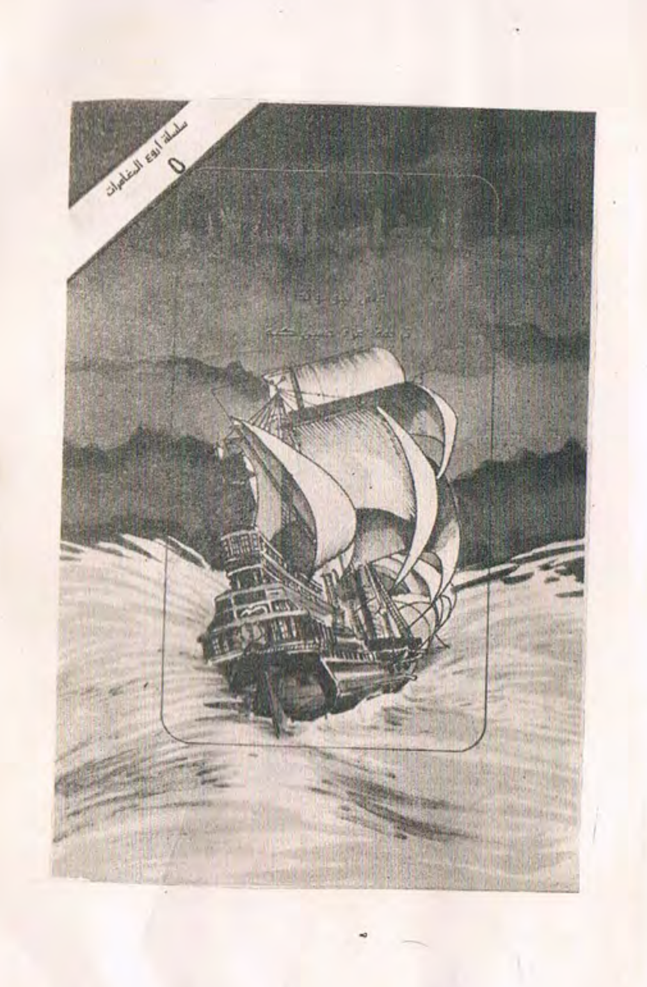

موسوعة الأطفال العلمية

جميل صدقي الزهاوي



اعداد : كمال لطيف سالم




سلسلة اروع المغامرات
٥


جبرا ابراهيم جبرا
ايام
العقاب


المكتشفون
الاوائل


الكتاب العلمي
الطاقة
وانواعها
تأليف
د. منذر نعمان البكر


مغامرات
لاثاريلييو دي تورمس
الكاتب مجهول
اقتباس: ماريا ايزابيل مولينا
ترجمة : مروان ابراهيم
دار ثقافة الاطفال
نصوص عالمية

[7]


مكتبة الطفل
السلسلة القصصية
اجمل
القصص


الطائر الازرق
تأليف: موريس مايترلنك
ترجمة: عبد الخالق ثروت
مكتبتنا


سلسلة اروع المغامرات
٤
العودة
الى كهف الزمن
ادورد باكارد
ترجمة: عزة حسين كبه